مقدمة

أعزائي البشر ....
أعزائي الحمير ....

كان من المفروض أن أكتب المقاطع الآتية على شكل مذكّرات ، لكنيّ فكّرت طويلاً فوجدتُ الكتابة بتلك الطريقة توقعني في مشاكل معقّدة لا أوّل لها ولا آخر ، فعليّ أن أنتبه إلى أمر خطير هو أنّ قرّائي من صنفين مختلفين : البشر والحمير . الحمير جميعها تنتمي إلى المدرسة الواقعيّة ، تأخذ بظاهر الكلمات ، ولا تعنى بالباطن والرمز ، فلا مشكلة لي معها .

ولأنّ البشر مختلفو الأمزجة ، بعضهم ينتمي إلى مدرسة الرمزيّة والآخر إلى السريالية ، وبعضهم يفخر بالرومانسيّة حتّى الواقعي منهم يلجأ إلى المعنى الاحتياطي للكلمة ، ويحمّلها مالا طاقة لها به . . . فقد وجدتني أتحرّج ، وأعرض عن ذكر التواريخ ، فحين أكتب على الصفحة مثلاً ١٤/٧ عام . . . قد يفسرّ الفرنسيون اليوم المذكور على أنّه تعريض بأحد أيّامهم الخالدة ، وربّما يفسرّها آخرون استهزاء ، ولعلّ يوماً مثل الخامس مثلاً يبعث في بعض النفوس تأويلات مبهمة ، فتفسرّه مجموعة شماتة أو تضامناً ، ولعلني أكتب يوماً مثيراً في حياتي وإذا باليوم نفسه تصادف ولادة أحد العظماء ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأكون سبباً في إثارة الغضب وإشعال العصبيّات ، وإحدى حلقات الفتن والحروب .

قد لا يخدمني الحظّ مطلقاً . . . .

وقد يفسّر البشر ما أكتبه استفزازاً لهم . . .

لذلك كلّه ابتعدت عن المذكرات والتواريخ وتجاوزت عن السنين والأيّام ، فمن حمل كلامي محمل البراءة فهو الرجل المنصف ، ومن حمّل عباراتي مالا تطيقه ، فقد ظلمني ، وظلم نفسه ، أقول ذلك وأنا أعتزّ بأيّ نقد يصل إليّ من الجنسين : الحبر والبشر على حدّ سواء .

الحروب
دليلٌ قاطع
على عجز العقل البشري
عن إيجاد حلول جميلة لمشاكله.

* * *

الحرب هي أسوأ احتمال
نلجأ إليه
حين يعجز تفكيرنا
عن إيجاد البدائل الأخرى

قصي الشيخ عسكر

القسم الأول

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

١ - السرد بضمير المتكلم

المشكلة التي أتحدّث عنها لم تكن تهمّني في البدء إطلاقاً ، فنحن معشر الحمير لا نبالي بالشكل ، ولا نشعر بالنقص لزيادة عضو في جسد حمار أو نقصان عضو آخر . . . تلك مشكلة الانسان نفسه ، وعلى ضوئها حدثت مأساتي ، مع ذلك لا أنكر أنّي كنت ذات يوم محور أحداث مهمّة خطيرة استمرت فترة غير قصيرة .

المشكلة ، أقول ذلك من باب المجاز ، إذ لا تعدّ مشكلة بمفهوم الحمير ، انّ صاحب هذه الاعترافات وُلدَ وله ذيلان ، وأنا هنا أسجّل الحقيقة من دون زيادة أو نقصان ، فأقول : عشت سعيداً في المرج الواسع مع مجتمعي وأترابي ، وهو أشبه بغابة آمنة من شرور الحيوانات المفترسة ، نتقاسم ما نجده من حشائش طول اليوم من غير نزاع أو مشاجرة .

أعتقد أنّي لو كنت بشراً ولي ثلاث أياد ، أو أرجل ، أو ثلاث عيون لكنت مثار سخرية وهجاء ، أمّا هنا في مجتمعنا ، فكنت أعيش دونما إحراج ، الشكل لا أثر له مطلقاً في شخصيّتك ، الانسان نفسه يحاول الآن أن يزيل الفوارق الطبقيّة والعنصريّة ، أي يروم الوصول إلى مرحلة تجاوزناها نحن قبل آلاف السنين . طبعاً نحن لا نرضى بالتشبيه الأدنى . لو أنّ حماراً سبّ آخر وقال له : أنت انسان ، فتلك

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

طامة كبرى ، قد تصل إلى الركل والرفس ولا أكثر من ذلك .

على أيّة حال كنت أشعر بإحراج من نظرات الناس . يأتون إلى المرج في فصل الربيع للسياحة ، فيتركون بقيّة الحمير ، ويتجمّعون حولي . أجدني مضطراً إلى مجاراتهم : أحياناً أحرّك الذيلين معاً ، أو أهزّ ذيلاً واحداً فقط ، مع العلم أنّي كنت أضحك منهم في سرّي .

كانت تصرّفات بعض الناس مؤلمة لنا إلى درجة تجعل أيّ حمار يفقد صبره الذي انحدر إليه بالوراثة . وفي مقدّمة هؤلاء : الصبيان وبعض الشباب المراهقين . إنّهم يبتكرون وسائل مختلفة لتعذيبنا ، لو فكّرت بالطرق الخبيثة التي يخترعها أطفال البشر لتعذيبنا ، لوقفت عاجزاً حتّى يراودني اعتراف خطير أو قرار بأنّ الجنس البشريّ أكثر ذكاءً منّا .

في إحدى المرّات رأيت مجموعة أطفال تسير خلف زوجتي ، وبيد أحدهم عصا طويلة . ظننت الأمر عادياً ، فالضرب لا يؤلمنا كثيراً ، بل اعتدنا عليه إلى أبعد الحدود . المهمّ رحت أراقب مجموعة الأطفال حتّى اقتربوا مسافة كانوا فيها آمنين من أيّة ركلة ، عندئذ أدخل كبيرهم عصاه في مؤخّرتها . حين أحست المسكينة بالألم رفعت رجلها ترفس الهواء . كان الأطفال يضحكون ، وكلّما ابتعدت الاتان أعادوا الكرّة مرّة ثانية . المنظر جعلني أفقد أعصابي . لعلّي قرّرت أركلهم بكلّ قوّتي ، غير أنّهم انفضّوا مسرعين عندما رأوني مقبلاً ، وفي عينيّ حمرة الغضب .

فهل أكون مخطئاً متحيّزاً إذا قارنت بعد ذلك بين أطفال الحمير

الجميلة الوادعة التي لا تؤذي سواها ، وأطفال البشر البشعين الذين تعوّدوا على العنف والخشونة .

أمّا حين أتحدّث عن معاناتي من البشر ، فأستطيع أن أملأ مجلّدات ضخمة لا تعدّ ولا تحصى ولا يجد الانسان وقتاً كافياً لقراءتها .

السبب كما قلت في البدء : هو كوني خلقت بذيلين . التمييز العنصري الذي يمارسه البشر فيما بينهم يسحبونه علينا ، وفي البدء قلت أيضاً : نحن الحمير نترفع عن السفاسف والعقد النفسيّة ، لذلك كنت أشعر أنّي مستهدف أكثر من غيري من الآدميين حين يزورون المرعى ، وليس لديّ وسيلة أحمي بها نفسي غير الرفس والنهيق .

بعضهم يشدّ ذيلي . أحياناً يتركون الذيلين وينصرفون إلى مداعبة أذنيّ كي يشاغلوني في أكثر من موضع ، والهدف الأساسي هو ذيلي ، فإذا انصرف اهتمامي إلى الموضع الجديد فاجأني أحدهم من الخلف .

وقد وقعت ذات يوم في كمين . أقسم أن ابليس لا يفكّر باختراعه ليستخدمه مع ألدّ أعدائه وهم البشر . كنت أتابع قضم الحشيش بهدوء وأمان . بعد فترة سحبني شيء من ذيلي إلى الخلف ، كلّما حاولت التحرّر شدّني الشيء بقوّة . قفزت وتمرّغت . ركلت الأرض من دون جدوى . إذن أنا في كمين . التفتّ إلى ذيليّ فرأيتهما مربوطين كلّ واحد منهما بحبل إلى شجرة . كنت أحاول التخلّص من الورطة الآدميّة التي وقعت فيها بسبب ذيليّ ، حتّى استفقت من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ذهولي على ضحك الصبيان المختفين بين الأشجار والسواقي

لا أتحرر من قيودي ، والمقاومة تتعبني . . .

وهم ينهالون عليّ ضرباً . . .

حتّى مرّ رجل كبير السنّ . يبدو انّه طيب القلب ، أثار غضبه تصرّف الأطفال ، فأوسعهم سبّاً وتقريعاً ، وهم ينهزمون منه بين الحشائش والأشجار .

هذه هي النماذج التي أراها كلّ يوم : رجال يتطلّعون إليّ بفضول ، وشباب بعضهم يحاول إزعاجي ، وأطفال مشاكسون . . لا أغالي حين أقول : انّي حفظت كلّ الوجوه البشريّة ، وعرفت تصرف أيّ واحد منهم ، وخبرت بواطن البشر .

من بين تلك الوجوه ، رأيت شخصاً طويل القامة ، غليظ القسمات ، خشن الملامح ، كثّ الشارب ، حادّ النظرات يرافقه شخص أشبه بالخادم : قصير ، ضعيف البنية ، خبيث العينين ، فهمت أنّ الرجل ذا الشارب الكثّ يطيل النظر إليّ ، ويفكّر قليلاً ، يحكّ صدغه ، ويفكّر ، ثمّ يهمس بأذن صاحبه ، ويبتسم ابتسامة عريضة .

أجابه القصير : ذلك شيء غريب حقّاً .

- ما رأيك في اقتراحي ؟

- على أيّة حال لن نخسر إذا قدمنا الاقتراح .

أمّا أنا فقد نفخت الهواء من منخريّ بقوّة شأن الحمير حين تعفط . ما يهمّني من الغموض والرمز والاشارة . نحن الحمير نؤمن

بالمدرسة الواقعيّة . أقسم أنّ البشر جميعاً لا يفهمونني حين أسبّهم لأنّهم لا ينتمون للمدرسة الواقعيّة ، وان إدّعوا، فمن باب الدجل والتمثيل .

كانت الشمس قد بدأت تميل إلى المغرب ، في تلك اللحظة بالذات ، توقّفت عن القضم . رمقت الرجلين فوجدتهما يتهيآن للرحيل . رفعت رأسي ونفخت الهواء ، ثمّ أطلقت نهقة متقطّعة ، ولمجرّد أن سمعتْ الحمير نهقتي ، أطلقت جميعها ، وبوقت واحد نهقات طويلة ، وكأننا ـ أنا ورفاقي ـ نشيّع الشمس والرجلين معاً ، ونستهزىء ، كعادتنا بأيّ نوع من الحيوان عدا مجتمع الحمير .

- ٢ -

على الرغم من أنّي واقعي ، غير أنّ حاستي السادسة توحي إليّ بإشارة قبل يوم أو يومين ، فأعرف أنّ أمراً ما سيقع على حين غرّة .

كنت أحسّ احساساً غامضاً أنْ سيحدث أمرٌ ما . وقفتُ في الحقل ، أقضم اللقمة ببطء كمن يتطلّع إلى مجهول بعيد ، وعلى بعد أمتار منّي راحت زوجتي تتجوّل ، وهي تلتهم ما تقع عليه عيناها . الصمت يلفّ الحقل سوى خرير شلال بعيد ، ونواح حمامة . تلك الوحدة عشتها من زمان ، وحفظت الصمت وسرّه عن ظهر قلب . اعتدتُ على هذا النمط من الحياة منذ ولادتي . أعبّر بقولي هذا عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

نفسي وبقيّة الحمير ، فنحن لا نلتقي كثيراً ، لأننا لا نهتمّ بشؤون الآخرين ، وليس لدينا وقت فراغ نقضيه بالغيبة ، مسألتان فقط شغلتا بالي ونغّصتا عليّ الطعام : مجهولٌ بعيد يجثم على صدري لا أعرف سرّه ، وبطن زوجتي التي لا أعرف هل انتفخت من الحمل أو لكثرة الأكل ، فهذا آخر يوم وقعت فيه عيناي عليها .

حين رفعت رأسي عن الأرض رأيت مجموعة من البشر يقتربون . ليست هذه أوّل مرّة . دائماً أنسى الماضي وأسمح للبشر بالاقتراب مني . أنا لستُ عنصريّاً كي أرفض مصافحة الآخرين من أيّ جنس كانوا . حمار واحد فقط كان عنصريّاً ، يبدو أليفاً وادعاً لأيّ انسان يقترب منه ، ثمّ يركله بشماتة . أنا أرفض تصرّفه لكنّي لا أستطيع أن أحتجّ عليه علناً ، ففي مجتمع الحمير تسود الديمقراطيّة بأعلى مراحلها . يحقّ لأيّ فرد أن يتصرف تجاه الأنواع الحيوانية الأخرى حسب اجتهاده ، أمّا أنا فكنت أرفض أيّ تصرّف بحقّ الأنواع ، على الأخصّ البشر ، وأحترم بعض الناس الذين يشبهون تفكيرنا . أشفق على من يعدّون أنفسهم أرقى المخلوقات . من هذا المنطلق الفلسفيّ كنت أترك البشر يقتربون مني ، وبين هؤلاء مجموعة بيّنت أمراً لم يخطر على بالي من قبل .

في الحقيقة لمحتُ شيئاً مبهماً بيد أحدهم . تبيّنت عابر أمس الطويل كثّ الشارب ، ومرافقه القصير . كلّ ما حدث أنّ السيد أعطى إشارة للرجل صاحب الشيء المبهم الغريب . فجأة شعرت بثقل يطوّقني . كان شبكاً مصنوعاً من خيوط قويّة ، عندما حاولت الهرب تعثرت وسقطت ، والخيوط القويّة تمنع يديّ

ورجليّ من الحركة . تجمّع الرجال حولي . كانوا يعاملونني برفق وليونة . ربّما لو كنت غير مقيّد وركلت أحدهم لما فعل أيّ شيء يؤلمني ، والحقيقة أقول ، كانوا يعاملونني طول الطريق من الحقل إلى العربة ، أفضل من معاملة أيّ سجين سياسي . استنتجت ، وفق معاملتهم الحسنة لي ، أنّ جرم خطفي ليس بسبب السياسة أو التهجّم على الدولة .

أنا آسف . تذكّرت أنّي حمار ، ولا تعرف البشر لغتنا . لو كنت ثوراً لخمّنت أنّ الخاطفين يشتغلون بالجزارة ، وأرجو أن أكون مخطئاً إذا حدستُ أن البلد يمر بمجاعة ، فاضطرّت الناس إلى ذبح الحمير .

أحلام شتى وخيالات مختلفة ، والواقع الوحيد هو كوني مخطوفاً . لحظات أتخيّل نفسي إنساناً فأفكّر تفكير الآدميين ، لذلك أبدو غبيّاً بعض الأحيان .

كان الطريق طويلاً ، وكلّما اقتربنا من المكان المقصود ، ازداد المرافقون لطفاً . توقّفت العربة ، ورفعوا الشبك عن جسدي . أبقوا يدي ورجليّ مربوطتين ، وددت أن أصرخ ، أحتجّ لكنْ لا فائدة . إنّه اختطاف في وضح النهار ، لا فرق في عملية الخطف بين إنسان وحمار . الانسان المخطوف يغطّون عينيه ويكممون فمه ، أمّا الحمار فيربطون رجليه ويديه ويتركون رأسه طليقاً . اكتشاف خطير يضاف إلى فلسفة بني آدم من الحمير .

قطعت مجموعة الحراس عليّ اكتشافي وهم ينقلونني إلى قصر فخم . فهمت أخيراً أنّ الشخص الطويل ذا الشارب الكثّ هو وكيل

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

جلالة السلطان على الحقول والغابات ، والقصير الدميم مرافقه ، وأن اختطافي جاء بأمر من جلالته ، والمعاملة اللطيفة التي عوملت بها كانت وفق أوامره التي لا تقبل الحديث والنقاش .

لم ينقلني الرجال إلى القصر مباشرة . كانوا يخافون على جوّه من التلوّث . محتملٌ جدّاً أن أحمل جرثومة غريبة . حجرني حرس السلطان في مكان يعبق برائحة الأدوية والمعقمات ، حضر رجل أصلع ، رفيع الوجه ، وغرز في فخذي إبرة حادّة . الحقيقة الابرة غير مؤلمة . عاودني الشكّ ثانية في أنّ الدولة بدأت تفهم لغتنا ، وتنصت سرّاً إلى أخبارنا . واني دخلت غرفة تحقيق للاعتراف . حين يكون التعذيب بهذا المستوى من السهولة ، فالسياسيون دائماً على كذب . أتذكّر أنّي أكون غبيّاً أحياناً ، فأكتشف الأمور متأخّراً . عرفت الآن أنّ الغرفة حجرٌ صحيّ مؤقّت ، تمّ فيها فحص كلّ ما يتعلّق بصحتي لكي يتأكّدوا من كوني لا أحمل أيّة جرثومة إلى القصر .

بعد الفحص الطبّي نقلني الحرس إلى غرفة أخرى . حضر رجل وسلّط على جسدي صنبور ماء دافىء . خيّل إليّ أنّ الحرس بدأوا بتعذيبي . أثقل شيء على الحمير هو الماء . فلسفتنا تنحصر في التراب فقط . عندما يحلو لنا الاستحمام نتمرّغ بالتراب تحت الشمس . من التراب جئنا وإليه نعود ، أمّا الانسان فلا يعرف الأرض إلا بعد موته . إحساس بارد ، ونكران للأصل فلو قدّم البشر التراب على الماء لما اختلفوا فيما بينهم .

عليّ أن أجتاز مرحلة الماء الساخن بشجاعة . لا أنكر أنّي حمار

لكنّ قدرتي على التحمّل محدودة . القطرات دخلت منخري وكادت تخنقني . توقّف الصنبور فدنا منّي أحد الحراس . كان يدخل يده في السطل ويدلك جسدي كلّه ، ثمّ غسلني بصنبور الماء مرّة ثانية . أيّها السادة : قاطعت الرجل بنهقة طويلة دلت على تذمّري وبَرَمي من مثل هذه الأمور التي تحدث لي .

رجل آخر وسيم الوجه جفّف جسدي ، ودلكه بروائح عطرة ذكرتني بورود الحقل وروائحها الذكيّة التي تثير شهوتي للطعام .

خرجت من الحمام كأنّي خلقت اليوم ، والسرّ في ذلك ذيلي الزائد اللعين . أجزم أنّ الملك آخر من يعلم ، هو كالزوج المخدوع تماماً . معذرة حين أستخدم عبارات الآدميين ، فمجتمعنا يترفّع عن مثل هذه التراكيب لكنْ عليّ أن أكتب للبشريّة بلغتها لكي تفهمني ، فأضطرّ أحياناً إلى مجاراتهم من باب التواضع .

سنوات مرّت ، ولدت بذيلين . ترعرعتُ ، وتزوّجتُ . اليوم أو أمس فقط أوصلوا خبري إلى السلطان ، فعدّ نفسه مكتشفاً لشيء جديد ، في حين مرّ بي خلق كثيرون ، ورآني الوضيع ، والرفيع ، وسمع بي الأعمى والبصير . اليوم فقط وصل خبري إلى السلطان ، أليس هذا شيئاً عجيباً أيّها السادة ؟

- ٣ -

أخيراً كنت في ضيافة السلطان . . . القصر واسعٌ تحيطه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

حديقة زيّنت بأنواع الورود ، إذ زرعت بشكل علم الدولة . صنف ثانٍ من الورود على هيئة ساعة حقيقيّة ، وثالث بهيئة مدرّجات حلزونيّة .

الواقع غرف القصر الواسعة لا تثيرني إطلاقاً ، إنّما أثارني الورد المختلف وطريقة زراعته . الحق أثار فيّ غريزة الأكل . فقد أجد بعض هذه الأصناف يومياً في الأحراج ، ربّما لا تكون لذيذة المذاق ، ولعلّ بعضها سام أو مرّ ، لكنّ الطريقة التي صفّت بها تفتح الشهيّة للأكل حسبما نفكّر به نحن الحمير قبل كلّ شيء .

هذا ما كنت أراه ، وأنا داخل قفصي الذهبي . قد يكون القصر أوسع ، وأكبر ، ومن المحتمل أن يشمل حدائق ، وبحيرات ، وحيوانات أخرى حسب تقديري الظاهريّ .

استقبلني السلطان المعظم بحفاوة بالغة . كان رجلاً في الخمسين من العمر ، مستطيل الوجه ، معتدل القامة ، أسمر البشرة يجمع بين خصلتين متناقضتين الذكاء والغباء في وقت واحد . يبدو أنّ إقامتي ستطول معه . بعض الناس يعدّون الصحبة بعد التعارف بساعات ، وفق رؤية الساعات ، سأكون من صحابة السلطان الذي عدّ اكتشافي من وكيله فتحاً جديداً ، ومأثرة تضاف إلى مآثره ، فوهبه مالاً كثيراً ، وأطلق يده في وظيفة أكثر أهميّة من ذي قبل .

إلى جانب السلطان وقفت زوجته السلطانة . كانت جميلة الملامح واسعة العينين في الثلاثين من عمرها يكاد طولها يغطّي على طول جلالته . كانت تنظر إليّ نظرات مبهمة بعض الأحيان ترمقني بطرف عينها ، وتنظر إلى الحضور شزراً ، غير أنّها كانت تردف كل

حركة ضجر أو نظرة شزر بابتسامة واسعة لا يستطيع أيّ ذكيّ من الحيوان والانسان أن يكتشف أهي ابتسامة تكبر أم شماتة أم مجاملة .

كانا يشرفان على قفصي الذهبي الواسع . يجب عليّ منذ اليوم أن أكيّف نفسي وفق حياة جديدة ، فأوفّق بين ثقافتين مختلفتين لكي يفهمني الاثنان . أعدّ نفسي الآن مرغماً على قبول وظيفة «سفير» أو «دبلوماسي» من مجتمع الحمير إلى مجتمع الانسان . سيكتشف الصعوبة يوماً ما أيّ سفير يبعثه البشر إلى مجتمع الحمير ، وسيضطرّ إلى التوفيق عندما يكتب للمجتمعين بلغة واحدة .

الضيق بمفهوم الحمير : انّها تعيش في مكان محدد . أيّ مكان يتحدّد بجدران يعدّ ضيقاً كما تصوّره فلسفة الحيوان ، مكاني الحالي واسعٌ بمفهوم السلطان . البشر جميعاً أخذوا بالظاهر وعاشوا داخل بيوت تحصرها جدران أربع لا فرق بينها وبين الزنزانات .

أعدّ العمال كلّ حاجياتي التي يراها السلطان ضروريّة . مكان مريح للنوم يخلو من التراب تماماً . كانا ـ السلطان وزوجته ـ يجهلان الراحة وفق نظر الحمير . يظنني السلطان أقبل بكلّ مبدأ بشري أو أنزع عن تراثي العظيم الذي ورثته . أحدث السلطان في سرّي : يا صاحب العظمة أنتم تضعون كلّ صنف من الحشائش في إناء ، وأنا ألتقطها من الحقل مجتمعة ، ولا أفرّق بين وردة حمراء وصفراء . يا جلالة السلطان الحمير تسير وفق القانون الطبيعي . ننام أين نرغب . نأكل ما نحبّ متى نشعر بالجوع . لا تعقيدات ولا بيروقراطيّة ، لا مشاكل ولا اختلاف . مجتمع مثالي تحلمون به ولا تصلون إليه . يا جلالة السلطان . . أنتم تنظرون إلى الجمال بصفته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شكلاً ، فتهتمون ، وأماكن النوم ، وتزيّنون الشوارع ، وتتأنّقون في اختيار الملابس ، ونحن ننظر إلى الجمال بكونه روحاً وعمقاً داخلياً لا علاقة له بالشكل . البعد الجماليّ عندنا جوهر ، لبّ ، وعندكم مظهر . تلك هي نقطة الاختلاف بيننا وبينكم ، لكنّ الطبيعة البشريّة طبعت على العناد ، والعناد قادها إلى الغطرسة ، والغطرسة إلى الدكتاتوريّة ، فحاول الانسان أن يجبر الحيوان على العيش كما جبل عليه هو لا كما أرادته طبيعة الأشياء . . .

كأن السلطان فهم قصدي .

أو كأنّه ابتدع وسيلة لقراءة أحاديث النفس ، ومعرفة الأشخاص من نظراتهم ، فمدّ يده ومسح على رأسي ، وظهري ، فشعرت بأمان لم أعهده من قبل . خامرني شعور بالراحة قليلاً ، شعورٌ وازى إحساسي بالانزعاج من المكان الضيق الذي أعيش فيه الآن ، وأرغب في الهرب منه إلى غير رجعة .

- ٤ -

خلال تلك الليلة تمّت تهيئة المكان بما يناسب المقام . وقف جلالة السلطان أمام القفص الذهبيّ الواسع الذي خُصص إكراماً لي ، ووقفت زوجته بجانبه ، وفي الصفّ الخلفيّ وكيله على المزارع والحقول ، ثمّ تقدمت الوفود تسلّم على جلالته ، وترى الحمار

الاعجوبة ، ممثلو السلك الدبلوماسي ، وفود البعثات والضيوف الأجانب . . الوزراء وكبار رجال الدولة . . .

ثمّ أعلن عريف الحفل عن بدء السهرة . الافتتاح بالسلام الوطنيّ ، كلمة الدولة ، عرض مسرحيّ ، فالختام . . .

وجدتها فرصة مناسبة للمشاكسة ، دون أيّ خوف من العقاب ، فقد أصبحت واحداً من الحاشية . وقف الجميع للسلام الوطنيّ ، عندئذ وجدت الفرصة مناسبة للنهيق ، حتى غطّى صوتي على الموسيقى ، حرّكت ذيلاً ، ثمّ الذيل الآخر ، فالذيلين معاً ، وأنا متأكّد أنّ عيون الجميع مشدودة إليّ ، وانتباههم محصور بين ذيليّ ، في حين كنت أصغي باهتمام إلى كلمة جلالة السلطان . كان يؤكّد أنّ البلد مشهور بالمعجزات ، ومنها اكتشاف حمار له ذيلان ، وتلك مسألة سياحية تفخر بها الدولة أكثر من أيّ بلد آخر . رحت أنهق والملك يتحدّث . قاطعت أيضاً الفرقة الموسيقيّة . كان الجميع مسرورين بي ، ولعلّ أحد الضيوف حسد الملك على هذا الاكتشاف الجميل . شعرت بصداع خفيف . فلم أعش حياة الصخب والضجّة . نحن الحمير نحبّ الهدوء كما هو معروف عنّا ، وإذا نهقنا مجتمعين ، فنهيقنا لا يعادل صخب أيّة مدينة آدميّة . عليّ أن أعتاد الصخب والضجر . كنت في الحقيقة أجهل سلبيّات الشهرة ، بعد أن أصبحتُ معروفاً في البلد عليّ أن أدفع ثمن شهرتي المتمثل بالناس وإعجابهم الشديد بي ، والقفص الذهبيّ الذي أحسّه كحبل يشدّ رقبتي ويقطع أنفاسي .

لستُ مهيّئاً من الناحية اللغوية أن أنقل وقائع الحفل كلّه ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لكنّ ذاكرتي تحتفظ باللقطات والفعاليات المهمّة ومنها المسرحيّة التي جاء دورها بعد السلام وكلمة السلطان .

كانت غامضة لي ، فالممثلون يتحدّثون لهجة سريعة . يلزمني وقت لكي أفهم لهجة البشر السريعة . استنتجت من ضحكات الجمهور أنّها مسرحيّة هزليّة . لا أدري ماذا حلّ بالممثل المسكين بعد نهاية المسرحيّة . لا شكّ أنّ النصّ يُقرأ من رقيب القصر قبل عرضه ، هل ارتجل الممثلون الجملة ، أم تجاهلها الرقيب . كان المشهد يمثّل أشخاصاً يسكرون في إحدى الحانات . كلّهم عزّاب ، وحين مرّ بهم صديق انفصل عنهم بعد الزواج دعوه إلى السهرة ، فاعتذر لأنّ زوجته تنتظره ! استهزأ منه أحدهم وعيّره بأنّه يخاف من زوجته . فأجاب الأخير على الفور : دلني على شخص لا يخاف من زوجته !!

أقسم أنّي لا أخاف من زوجتي ولا أيّ كائن على الاطلاق . ضحك الحاضرون عالياً ، واصفرّ وجه السلطان . رأيت رجلاً صارم القسمات يجلس خلف السلطان مباشرة ، ويرمق الممثّل من طرف خفيّ ، وعلى الرغم من أنّي أفهم القليل من لغة البشر ، فقد عرفت أنّ في المسرحيّة انتقادات مباشرة لسياسة الدولة أثارت سخرية الحاضرين وضحكهم لكنّ المشاهد لم تكن لتُحرج السلطان مثل المشهد السابق . . هل أستنتج أنّ السلطان يخاف من زوجته وأن الممثّل ارتجل النصّ في ساعته الراهنة بعيداً عن مطالعة الرقيب ؟ العلم عند ربّي ، فربّما يكون الرجل ذو القسمات الصارمة نفّذ وعيده الخفيّ بحقّ المهرّج الغبي . . .

السابق لي .

قالت السلطانة : سنضع قرب قفصه الليلة آلة تسجيل تبثّ موسيقى هادئة .

عدّوا أسماء ملحنين لا أعرفهم ، ما للحمير وبتهوفن أو مايكوفسكي . بنو حامر يحبّون الصمت لا أكثر ولا أقلّ ، وإذا نهقت فنهيقها يدلّ على احتجاج أو حاجة ، أمّا حين تبدأ الحمير بسماع الموسيقى فتلك مسألة أخرى تدخل التاريخ على يد سلطاننا المعظم .

بدأت أعتاد هذا اللون من الحياة . في معظم الليالي العادية يأتي جلالته ، يجلس قرب قفصي ، وبجانبه الملكة . يستمعان إلى موسيقى هادئة ، ويتبادلان القبل ، والغزل . طبعاً لا يفعلان أيّ شيء أمامي ممّا هو في ذهن قرّائي الحمير أو البشر ، ما عدا بعض الغزل الخفيف ، لكنّهما يذكراني بزوجتي التي فارقتها منتفخة البطن ، ولا أعرف أكان السببُ التخمة أم الحمل .

بدأت السلطانة تخلع ملابسها سوى ثيابها الداخليّة . لن أنقل أيّ شيء مبالغ فيه . لم أصدّق عينيّ . إنّ وجهها جميل ، غير أنّ الثياب تخفي جسداً ذابلاً أصابه الترهّل قبل الأوان . يبدو أنّ زواج السلطان بها كان صفقة سياسيّة لا غير .

تابعتها بعينيّ الواسعتين . مشيتها ، انحناءتها ، تدللها . لم أجد فيها أيّ شيء يبعث الاغراء والشهوة . رأيتها تقترب من السلطان وتقرص أذنه قرصة خفيفة ، ثمّ تقفز كالبطّة العجوز إلى البحيرة ، فأصابني بعض رذاذ الماء . غطّت ودفعت كالضفدعة برجليها إلى الجانبين . فخلع السلطان ثيابه على عجل لكي يلحق بها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وقف الجميع ثانية احتراماً للسلام الوطنيّ . عاودت نفخ الهواء من منخري ، شأني كلّما عفطت ، ثمّ أطلقت نهقة عالية . . .

بعد لحظات ودّع الملك ضيوفه . أرجو ألا أكون مغالياً إذا قلت : أنّ بعضهم حسد السلطان عليّ . مجرّد حدس ، وظنوني لا تخيب أبداً . . .

خلا المكان إلا منا نحن الثلاثة . . . السلطان ، والسلطانة ، وأنا . . .

قال السلطان : ألا ترين أنّه حمار فريد يا عزيزتي ؟

نظرت إليّ نظرة سريعة ، هزّت رأسها بالايجاب ، واستمرّ السلطان :

- أتعرفين انّي اكتشفت شيئاً ما ؟

تطلعت إليه السلطانة بعينين فضوليتين ، وقالت بنبرة وادعة :

- ما الذي يمكن أن تكتشفه غير الذيلين ؟

مسك يديها بحنان وقال :

- لقد نهق كلّما عزفت الموسيقى ، ذلك يدلّ على أنّ له حسّاً موسيقيّاً .

إنّها كما أتخيّل طامّة كبرى . فأنا أستطيع أن أقيّم كلّ إنسانٍ من عينيه ، أقول ما زلت مصرّاً ، فأنا أستطيع أن أقيّم كلّ إنسان من عينيه ، أقول ما زلت مصرّاً على أنّ السلطان يجمع المتناقضين معاً . الذكاء الحاد والغباء الحاد . عقله يدفعه دائماً إلى استنتاجات خاطئة ، لو يفهم الملك لغة الحمير لعرف أنّ نهقتي الأخيرة احتجاج على وصفه

في الماء .

أقسم أنّ عينيّ لا تخدعاني مطلقاً . كانت المصابيح خافتة ، ومع ذلك رأيت جسمه بصورة دقيقة . ليس به أيّ أثر لجرح . منذ أوّل يوم حللت فيه بالقصر ، وأنا أسمعه يتحدّث عن كثرة الحروب التي خاضها ، وعدد الجراح في جسده ، وأنا الآن لا أرى أيّ شيء . عيناي كبيرتان وحادتا البصر لا تخطئان . . قد أكون كبرت وضعف بصري ، أو أصبت بمرض يسمّى «نصف الاخفاء» أو «بعض الاخفاء» وهو مرض معروف عن الحمير ، مجهول للبشر أعراضه أن ترى بعض الشيء وليس كلّه ، فإذا كان في جيبك مثلاً عشرون قرشاً رأيت منها عشرة أو اقلّ لأنّ عينيك تخفيان عدداً من النقود . لا أريد أن أخيف البشر لكنّي ، أعترف دائماً بخطأي حين أخطىء ، ومن جملة أخطائي أنّي أزجّ في كتاباتي بعض خصوصيّات الحمير وأنسى أنّي أخاطب الانسان والحيوان معاً .

أخيراً أمسك السلطان بالسلطانة . دفع كلّ منهما الماء بوجه الآخر . أطلقا الضحكات . تعانقا . قبّلها قبلة طويلة ، وحملها بين ذراعيه إلى رصيف البحيرة . لفّ جسدها بالمنشفة ، ووضع يده على كتفها ، ثمّ قصدا مخدعهما ليكملا سهرتهما هناك .

وعلى أنغام الموسيقى الهادئة المتهادية من جهاز قرب قفصي ، رحت أتذكّر زوجتي التي انتفخ بطنها ، وأقارن بين جمال جسدها البضّ وجسدالسلطانة المترهّل . . ورويداً رويداً . . تلاشت الخيالات ، وبدأ النعاس يدبّ إلى جفنيّ بعد يوم طويل مملّ ومتعب .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٥ -

يحقّ لي أن أسمّيه فصل تعذيب ، لولا القفص الذهبيّ والطعام الفاخر ، لخامرني شكّ بأنّي معتقل سياسيّ ، وفق الحال التي أنا فيها ، فأطلقت عليه بلغة الحمير الخاصّة تعذيباً لا يطاق .

يحضر رجل أنيق الملابس ، بمرافقة السلطان وتحت اشرافه ، يخرجني من قفصي ، ويقودني إلى مكان غير بعيد ، غرفة فيها آلات مختلفة لا أعرف أسماءها ، يضع في مكان ما صفيحاً يسع قدميّ ويديّ ويأمرني بالوقوف فوقه . يحجزني في المكان بقضبان حيث لا أستطيع فراراً .

يقف الرجل على بعد من القضبان ، ويتكلّم كلاماً سريعاً لا أستطيع أن ألتقط معناه ، ثمّ توقّف عن الكلام فجأة ، ولجأ إلى الحركات . . .

التعذيب بدأ فعلاً . سخنت قطعة النحاس تحت يديّ بصورة مفاجئة ، في اللحظة التي دخل رجلٌ يرتدي سترة سوداء طويلة ، رافق دخوله عزف موسيقيّ يصدر من مكان مجهول ، وقف يتطلّع فيّ ، ويلوّح بيده إليّ . . من أين لي أن أفهم قصده . توقّفت الموسيقى عن العزف . لم يعد يهمّني أن أضع يديّ على المعدن من شدّة التعب ، فأكتشف أنّ المعدن أصبح بارداً مرّة ثانية .

يا ابن أتان لم تأكل التفّاحة ، ولم تخطىء . السلطان نفسه

يشرف على تعذيبك . السلطان سيد الناس ، فالأمر يدلّ على كونك غير عاديّ . لا بدّ أن تكون سيد الحمير كي يهتمّ السلطان بأمرك . أنا أعرف هؤلاء البشر فهم لا ينزلون عن غرورهم لشيء أقلّ مستوى من مركزهم . الآن تعرف قدرك وتضع شخصك في كفّة تعادل كفّة السلطان .

اعترف . . ! ماذا أقول ؟

- انتميت إلى حزب سياسي ؟

- كلا

أعقّب : نحن الحمير لا نؤمن بتعدّد الأحزاب وننتمي إلى حزب واحد يحكم كلّ جنسنا .

- ماذا تذكر ؟

- ولدت بذيلين ، عشت مع أمّي . انفصلت عنها بعد حين . لا أعرف أين هي الآن . قالت لي يا ولدي أصبحت كبيراً . لا أعرفك ولا تعرفني من اليوم .

لا غرابة في ذلك فأرقى مجتمعاتكم أيّها السادة البشر بدأت تتصرّف مثل تصرّف أقرّه مجتمعنا قبل آلاف السنين . أبي لا أعرفه اطلاقاً . في مجتمع الحمير يظلّ الجحش مع أمّه فترة الرضاعة . يُولد لا يعرف أباه ، أقرب مجتمعاتكم إلينا أيّها السادة تفخر بتقدم تجاوزناه نحن منذ زمن بعيد .

- السياسة ؟

- لاتعنيني إطلاقاً . إذا حدث قحط أو مجاعة ألقيتُ المسؤولية

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

على اللّه تعالى لا على الدولة ، فلو أراد سبحانه ألا يحدث سوء لكان بقدرته .

أتوسّل إلى السلطان أن يعفو عنّي . أسأله أقسم عليه باسم أمّنا الطبيعة بأنّي بريء لا ناقة لي في أيّ حدث خطير ولا جمل . أراه يجلس كالتمثال لا يعير توسّلي أيّ التفات ، ولا تخامر قلبه شفقة نحوي فيأمر الرجال بايقاف التعذيب .

يبدو أنّ الرجل الأنيق لا يقتنع بإجابتي ، فيرفع يده . يحضر الرجل ذو السترة السوداء الطويلة ، فتبدأ الموسيقى بالعزف ، ويسخن الصفيح تحت يديّ فجأة ، فأرفعهما وأظلّ واقفاً على قائمتيّ الخلفيّتين . . .

سيدي صدقني . لم أفعل أيّ شيء . الحمير كما تعرفون لا تحبّ العنف ، ولا تتدخّل بالسياسة . لا تتاجر بالمخدرات والممنوعات ، لا نكتب ولا نقرأ لغة البشر . أنهق محتجّاً ، يتصبب عرق غزير من جبهتي ، أتوسّل والرجل الأنيق لا يصدّقني . . .

تتكرّر العمليّة مرّات ، ومرّات ، وتطول فترة التعذيب . أخيراً أضجر من كلّ شيء ، وأجد في المعاناة بعض اللذّة ، أؤدّي العمل والحركات من دون إحساس بالألم والتعب .

والرجل الأنيق لا يصدّقني . . . يغيّر وسيلة التعذيب ، يبدّل إشارته فيدخل شخص آخر يختلف زيّه عن الرجل السابق .

ماذا أفعل غير النهيق والنفخ تعبيراً عن ألم لا يطاق أحسّه بيديّ من الحرارة والتعب . أتوسّل إلى السلطان ، فلا يلتفت إليّ ، يثيرني

أنّه ينهض من مكانه . أساريره تنطق بشراً وحبوراً . يقول : أنا خارج الآن واصلوا معه انّه أعجوبة . . فينحني الرجل الأنيق ، ويردّ على السلطان : انّه ذكيٌّ جدّاً . . .

أنا ذكيّ طبعاً ولستُ غبيّاً . كلّ ما أعرفه قلته . أنهق متوسّلاً ، والسلطان يخرج ولا يعير نهيقي أيّ التفات .

الرجل الأنيق يعيد التجربة ثانية : يرجع إلى مكانه المعتاد . يدخل الرجل الآخر . . يتعانقان ، تبدأ الموسيقى بالعزف . الصفيح المعدنيّ يسخن ، أعود أفكّر بالتكيّف للحالة الجديدة . أبتكر طريقة لا تريحني بل تصرف ذهني عن عذاب قاس أحسّ به . لا سبيل إلا أن أرفع رجلاً ويداً لحظة ، ثمّ أرفع الرجل واليد الأخريين . أنزل قائمتين ، وأرفع قائمتين . الحرارة ترتفع والألم يزداد . لا سبيل إلى الهرب ، فالرجل الأنيق لا يصدّق أنّي بريء . أتيقّن من خلال العذاب أنّ السياسيين ليسوا كاذبين أو مبالغين في كلامهم عن التعذيب ، لكنّي يا سيدي المحقق بعيدٌ عن السياسة . الحمير لا تعرف السياسة ، ولا تتدخّل بشؤون غيرها . أنا أعتذر عن أيّ خطأ صدر من بني جنسي بحقّ البشر . ربّما جلبتموني هنا لأنّ حماراً يشبهني رفس أحد الآدميين . أكرر قسمي أنّي لا أعرفه ، واللّه تعالى يخلق من الشبه أربعين كما يُقال ، كلّنا نحن الحمير متشابهون في الخلقة ، والأخلاق ، لو أعرف المذنب منّا لدللتكم عليه . سأعاقبه قبل أن تعاقبوه أنتم . . .

يبدو أنّ الرجل الأنيق يقتنع . تتوقّف الموسيقى ، ويعود الصفيح الساخن إلى البرودة .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

شكراً يا سيدي المحقق . أرجو أن تعرف أنّ الحمير لا تكذب مطلقاً وأنا المسؤول الأوّل والأخير عن اعترافاتي .

يجلس قليلاً . . . يسحب نفساً طويلا ، يبدأ بالتدخين ، ويحضر إليّ طعاماً لذيذاً . هذه مكافأة منهم لي . لكنّ نفسي تعاف الطعام من شدّة الألم والتعب ، صرفني الورم عن الأكل . خفت أن يفسّروه إضراباً عن الطعام فاضطررت إلى قضم ثلاث باقات من باب المجاملة .

ـ لستُ حاقداً يا سيدي المحقق . مستعدٌّ للتعاون معكم شرط أن تصدّقوا أقوالي ولا تشكّوا بي مطلقاً . . .

الرجل الأنيق لا يعيرني أيّ التفات . ينهض مرّة أخرى ، ويأمر مجموعته بالعمل من جديد فأستغرب في سرّي من تصرّف البشر المتناقض ، وأغرق في بكاء صامت ، وجوّ حزين يرجعاني إلى الحقل والأتان وأيام لا أعرف كيف أسترجعها وسط هذه الدوامة .

والرجل الأنيق يعيد تجاربه . الموسيقى ثانية وحضور ذي السترة السوداء . العناق . حفظت الدور عن ظهر قلب . حين يدخل الرجل ذو السترة السوداء ، تبدأ الموسيقى بعزف لحن حفظت نوتته عن ظهر قلب ، فأرفع قائمتي الأماميتين وألوّح بهما ، وعندما تعزف الموسيقى لحناً معيّناً ، وأرى رجلين يتعانقان ، أراوح في مكاني ، ولا يهمني إن كان في الصفيح ماءٌ أم نار . .

أصعب تعذيب مررت به هو حركة الذيل مع رفع القائمتين الخلفيتين . كان المحقق أو الرجل الأنيق كما أفضّل أن أسمّيه ذكيّاً

جدّاً . رفع الصفيح حتّى لامس ذيلي ، فاضطررت إلى الوقوف على يديّ وتحريك ذيليّ في الهواء فيضحك الرجل الأنيق ، ويطلق عليّ اسماً غريباً أسمعه للمرّة الاولى «الطائرة الهيليكوبتر» !

التعذيب يستمرّ يوميّاً تقريباً ، وهم يهتمّون بي كثيراً . يقدّمون لي طعاماً شهيّاً تعافه نفسي من شدّة التعب ، يعرضونني مرّات عديدة على طبيب يفحص قوائمي الأربع ، ويزرقني إبراً تخفف الألم ، وبمرور الزمن تصلّبت قوائمي وتغلّبت عليّ حرارة الصفيح ، وأنا ما زلت أعيش التعذيب الذي أصبح جزءاً من كياني .

في النهاية استطعت أن أؤدّي المطلوب . أسمع موسيقى معيّنة فأرفع قائمتيّ الخلفيتين . المشاهد تمرّ أمامي ، فأتذكّر الصفيح الساخن ، وأؤدّي الحركات بكفاءة . كلّ ذلك حفظته عن ظهر قلب ، وأتحدّى أيّ ابن آدم ، نعم ، أقولها بفخر ، ما يعجز عن فعله الانسان ، يتقنه الحيوان ، ولأنّي منطقيّ أقرّ حكمة الانسان فينا : التكرار يعلّم الحمار ، وأضيف حكمة من عندي : وقد لا يعلّم الانسان .

آخر يوم من أيام العذاب زار السلطان المكان . أبدى إعجابه بي ، وكافأ المحقق ومن معه مكافأة مجزية ، وصافحهم مصافحة حارة ، وأمر أحد الحراس أن يقودني إلى القفص الذهبي مرّة ثانية .

انتهى التعذيب ، ولم يكن تعذيباً . كان تمريناً لي على تعلّم الحركات ، والترحيب بالضيوف والوفود الأجنبية في المراسم الخاصّة .

ألم أقل لكم أنّي أكتشف الأشياء متأخّراً ، فالعجلة تعقبها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الندامة . جلالة السلطان ، يكتشف الأمور مثلي بعد صبر وأناة ، وإلا فمن يستطيع أن يقول عنه : انّه متسرّع وعجول .

- ٦ -

كانت ليلة نادرة طريفة انطبقت في ذاكرتي ، وظلّت أقوى من الأيام والنسيان . لا أغالي حين أقول كنت الشخصيّة المهمّة في تلك الليلة ، بعبارة أدقّ أحد الأبطال الرئيسيين .

لا أعرف ماهي المناسبة بالضبط ، فساحة القصر اكتست ألواناً زاهية ، وارتفعت أعلام البلاد على الجدران . أظنّ أنّي سأكتشف الأمور بعد حين شأني كلّ مرّة ، على أيّة حال عليّ أن أتحدّث بما تراه عيناي أوّلاً . أنتم تضحكون وتتذكرون نكتة ابتدعتموها عنّا : يقال أنّ القرد حكى نكتة في الغابة يوماً ما ، فضحكت الحيوانات عدا الحمار . في اليوم التالي مرّ القرد بالحمار فعرف أنّه فهم النكتة وأخذ يضحك . لا حاجة أن أذكركم بما يصوّره اعلامكم عنّا . . . أنتم تتجاهلون الحقائق دائماً لأنّ اعلامكم ينقلها مشوّهة ، فتقعون بأخطاء كثيرة . تذكروا أنّ أعداءكم ليسوا ضعافاً كما يقول الاعلام ، والحمير ليست غبيّة إلى هذا الحدّ . الحمار لا يضحك على النكتة مباشرة بل يفكّر لماذا يضحك ، وعندما يقتنع يبدأ بالضحك .

أليس من حقّي أن ألقي التهمة على عينيّ . فقد رأيت -

وكأنني أحلم - منضدة في أقصى الساحة ، وضعت عليها فطيرة جميلة ، تحفّ بها شموع طويلة . مراسيم غريبة عنّي ، لا نألفها نحن في عالمنا المتجرّد عن التعقيد .

قلت : كنت في المقدّمة . السلطان يأمر ، والخدم ينفّذون الأوامر . السلطانة ظهرت بحلّة زاهية طويلة . راحت تتبع الملك كظلّه ، ولا تعيرني أيّ التفات . أناسٌ يصفّون الكراسي ، آخرون يعتنون بالزهور ، وأنا أشعر بالراحة لأنني خارج القفص . يزعجني فقط رجلٌ يمسك لجامي ويقيّد حركتي بعض الأحيان .

ماذا يحدث ، بل ماذا أرى ؟ عرسٌ ؟ أعتذر من خطأي ، وأحمد اللّه على أنّ السلطانة بعيدة عني وإلا حلت المصيبة . أسأل نفسي : أهي تكرهني ؟ فمنذ قدومي إلى القصر لا يهمّها أمري . أرجو أن أنال رضاها يوماً ما بحركاتي التي تعلمتها . لاشك في أنّ السلطان أمر بتعليمي تلك الحركات لأسرّي عنه وعن زوجته حين يصيبها الملل ، وستكتشف وقتئذٍ أنّي طيب القلب لا أحمل حقداً وضغينة . أجدُ لتجاهلها إيّاي عذراً . من المحتمل أنّ حماراً قليل الأدب رَفَسَها أو أنّها سقطت من على ظهر حمار ذات يوم ، فكرهت الحمير . سأثبت لها حسن نواياي تجاهها ، وأجعلها تحبّني إلى درجة لا تستطيع معها فراقي . أقصد حبّاً أخويّاً خالياً من الشوائب ، وسأثبت للعالم البشريّ أجمع أنّ قضيّة الحمير عادلة فنحن لا نرغب إلا في حقّنا ، وما حضوري هنا بأمر من جلالة السلطان إلا محاولة جادّة منه لنشر السلام في أنحاء المعمورة بين الأجناس الحيوانية المختلفة ، وما عليّ إلا أن أكون مهذّباً ، أتصرف بحكمة ودقّة ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لأرضي الجميع . . .

كنت أحسب حساب أيّة حركة أقوم بها ، فالمهام الملقاة على عاتقي خطيرة وجادّة ، وان بدت مضحكة ، وعلى ضوئها حسب ظنّي يتمّ تحديد العلاقة بين الانسان والحيوان في المستقبل ، فالسلطان الآن يقف على خطّ مواز لخطّ وقوفي ، وعلى بعد منه الوزراء ورجال الدولة ، أيّ انّ موقعي السياسيّ أقرب إلى السلطان من الوزراء والمسؤولين ، إلا أنّ الدولة ـ والحقّ أذكر ـ لا تثق بي كلّ الثقة ، فما زال رجل من الحرس يمسك لجامي ولا يدعني أتحرّك .

لحظات ، وصدحت الموسيقى من فرقة تعزف خلف مكاني بالضبط . إنّها الموسيقى نفسها . تذكرت معاناتي ، وألماً مررت به ، وخطر إلى ذهني الصفيح الساخن . كلّ مشاهد التمرين شخصت أمامي بوقت واحد . دخل رجل يرتدي بدلة سَوداء مع بدء الموسيقى . خلت أنّ النار تشتعل تحت يديّ فرفعتهما . . ابتسم الضيف ابتسامة عريضة وخطا نحو الملك . . .

تغيّرت الموسيقى . خلت النار تشتعل تحت قدميّ ورجليّ ، فبدأت أراوح ، ووقفت حالما صمتت الموسيقى ، وأنا ألهث من شدّة الاعياء . صحب السلطان ضيفه إلى حيث أقف . الموسيقى تتغيّر ثالثة ، فأحسّ بالنار تشتعل تحت قائمتيّ الخلفيتين ، وذيلي انقلب واقفاً على يديّ وأحرّك ذيليّ . . . ثمّ يقف العزف ويعود الهدوء . يسأل الملك ضيفه : حمار ذكيّ يتعلّم سريعاً ، أترى رأيي نفسه ؟ يعلّق الضيف بنفاق : لا أكتمك أنّ من يراه يحسدك عليه . يصحب

السلطان ضيفه إلى مكانه المخصص ويعود إلى استقبال ضيوفه ، في كلّ مرّة أؤدّي الحركات ذاتها . . . أقف على القائمتين الخلفيتين . . أراوح ، أستند إلى يديّ وأحرّك الذيلين ، أسمع العبارة نفسها : حمار ذكيّ يتعلّم سريعاً ، ألا ترى ذلك حقّاً ؟ أمّا إجابات الضيوف فكانت مختلفة . . رائع . . أعجوبة زمانه . . العالم يحسدك عليه . . . له مواهب خارقة . . له مستقبل عظيم . . بكلمة واحدة أحزنتني ، وددت لو ركلت صاحبها تأديباً له . أعددتها إهانة مقصودة من أحد الضيوف الثقلاء : هذا الحمار أفضل من بعض البشر . نحن الحمير لا نقبل بالتشبيه والمقارنة مع أيّ مخلوق كان ، لكنّها طريقة البشر في التعبير عن مشاعرهم . قد يشبّهون الانسان بالغزال ، والأسد ، والذئب . كتمت غيظي هذه المرّة ، ولم أنهق محتجّاً ، فقبل يومين سمعتُ أحد الشعراء القادمين إلى القصر يشبّه سلطاننا المعظم بالأسد . غضبت ، وحين أغضب ألجأ إلى النهيق . ظنّ السلطان نهقتي استحساناً للشعر ، غير أنّها كانت محض احتجاج . الانسان انسان ، والأسد أسد ، والحمار حمار . هذه محاولة صلفة من الانسان لكي يجعل الطبيعة مختلّة التوازن . الانسان له فلسفته الخاصّة ، والحمير لها فلسفتها ، وهناك أمور مشتركة بين الجميع ، ومنها التوازن الطبيعيّ ، فإذا صار الانسان أسداً اختلّ التوازن .

ماذا يحلّ بالأرض لو أنّ الشعراء جعلوا كلّ الحكام والمسؤولين أسوداً ؟ ماذا يحلّ بالأرض لو انقلب الانسان حماراً ؟

عوّدت نفسي على أن أبتلع الاهانات على مضض ، غير معقول أن أقلب الفرح مأتماً ، وعليّ أن أتحمّل أيّة إهانة تصدر عن

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الضيوف ، فالضيف حسب تقاليد الانسان هو رب الدار .

قلتُ انّ لي دوراً مهمّاً في الحفل ، وقد تعوّدت الا أتحدّث عن نفسي فقط . كانت هناك مراسم اخرى بعيدة عن مواهبي ، ولا دخل لي فيها . مهمّتي انتهت تماماً بحضور آخر المدعوين إلى القصر . . بعدها مباشرة اقتادني الحارس إلى القفص الذهبيّ ، ووضع أمامي الحشائش !!

اضطجعت على الأرض . بدأت أقضم وأتأمّل المدعوين والضيوف . دارت على الحلقات أقداح الشراب . رأيت وسمعت مغنين يغنون ، وأثارني صوت القناني عند فتحها ، وتناثر الشراب منها إلى أعلى . . .

أراقب المشاهد ، وأنا أقضم ببطء . . . وكأنّ السلطان وضيوفه نسوني ، كأنّ التجاهل عدوى انتقلت إليهم من جلالة السلطانة خلال لحظات . . .

كان الحفل جميلاً وبهيجاً ، بعث فيّ الراحة والسرور بعد تعذيب وعمل شاق . أمرٌ واحد سبب لي الملل والضجر ، هو هؤلاء الشعراء الذين تقدّموا بين يدي جلالة السلطان ومدحوه بقصائد فخمة . كرروا عبارات أقرف منها . . أسد . . شبل . . ليث . . لم يبق حيوان من الحيوانات القوية المفترسة إلا وأطلقوا اسمه على السلطان . لقد قضيت فترة من الزمن في القصر ، ورأيت السلطان بعينيّ هاتين يأكل مثل الحيوانات الوادعة ، أقصد العصافير والحمام ، والأغنام ، والبشر . لم أره يفترس أيّ حيوان أو يبتلع أيّ كائن حيّ . حمدت الله على أنّ دور الشعراء حلّ قبل الختام ، إذ سرعان ما نهض

الجميع ، واتجهوا إلى المنضدة الطويلة حيث الفطيرة والشموع . . .

غنّوا حول الفطيرة جملة أقرب إلى الرطانة ، وانحنوا في أثناء غنائهم على الشموع ينفخونها . السلطان ، السلطانة ، الحاضرون ينفخون الشموع ، ويصفّقون ، حلا لي الجوّ فنهضتُ على قوائمي الأربع . . . ونهقت . . . بدأت الحفلة بي ، فلأنهينها أنا وليس شخص آخر غيري . . .

أخيراً ، فهمت ، شأني كلّ مرّة ، أنّ البشر يسمّي الحال التي رأيتها «عيد ميلاد» ، وهو أشبه بحدث تاريخيّ ، إنّه عيد ميلاد السلطان ، والشعب في الخارج يحتفل به ، أوسع من احتفال القصر ، الحقيقة كان ذلك أمراً جديداً بالنسبة لي ، فنحن الحمير لا نعرف شيئاً اسمه الماضي . لا نعرف متى ولد أحدنا . إذا كان أحدكم يعرف متى يموت ، فهو يعرف متى ولد بالضبط . نحن الحمير نهتمّ بالحاضر فقط ، نختصر الماضي والمستقبل في الحاضر خلاف الانسان الذي يوزّع قواه بين ثلاث : الماضي والحاضر ، والمستقبل .

- ٧ -

حين أطلّ الصباح فاجأ الحكومة أمرٌ جديد ، في البدء ظننت أنّ على باب القصر ثورة ، فدبّ الخوف إلى قلبي ، وارتعدت فرائصي . هل ستعاملني الحكومة الجديدة معاملة السفراء الأجانب

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

باعتباري سفير الحيوان إلى السلطان المخلوع ؟ عشت لحظات بين الخوف والهلع ، حينئذ عرفت الحقيقة . ليست الضجّة ثورة . لقد سمع الناس بالحمار العجيب وحركاته ليلة ميلاد السلطان ، فتوجّهوا إلى القصر مطالبين برؤية المعجزة الجديدة . اضطرّ السلطان نفسه إلى النزول عند رغبة التظاهرة ، ووقف يلوّح للناس ويشكرهم . تحدّث عن نفسه وانجازاته . كان الناس لا ينقطعون عن الهتاف والمطالبة برؤيتي . أسمعُ شخصاً مبحوح الصوت يهتف : ماذا تريدون ؟ فيجيبه الناس بصوت واحد : الحمار !!

أصبحت علماً معروفاً يقرن اسمي باسم السلطان . أنا مسرور بالطبع . أرفع صوتي . أنهق . أودّ أن أشكرالجمهور على إعجابه وتقديره لي ، وأعاهده على أنّي أقبل أيّة وظيفة من مدير عام إلى وزير أو عضو في البرلمان . شيء واحد يثير خوفي من البشر ، هو انقلابهم السريع المفاجيء . . . اليوم يهتفون عاش فلان وغداً : الموت له . لا أخاف الموت فهو حقّ بل أخشى الموت قسراً . أنا أقبل أيّها السادة البشر دعوتكم ، وأعاهدكم على الوفاء ، وأرجوكم ألا تهتفوا بموتي غداً .

نهقت ، ونهقت ، والبشر يهتفون . السلطان يعدهم بأنّي سأخرج إليهم في الحال ، وأنّ الفرقة المرافقة لي مستعدة لتؤدّي الدور معي .

. . . وخرجت إلى الجمهور . أبصرت المدينة من على عربة تحمل قفصي ، يرافقني الرجلان : ذو السترة السوداء والأنيق ، وفرقة موسيقيّة خاصّة .

عالم غريب أراه للمرّة الاولى ، الشوارع ، الحوانيت ، طراز الأبنية . كلّ ما تقع عليه عيناي من عمران بشريّ أطلق عليه وفق فلسفتي الخاصة كلمة «تعقيد» .

العربة تسير والناس يحيطون بها هاتفين : عاش السلطان . . . عاش حمار السلطان . . عاش السلطان . . عاش حمار السلطان ! يقف الموكب عند ساحة واسعة . . فيرتقي الرجل الأنيق منصّة ويخطب في الجمهور : أيّها السادة . . . الناس يقاطعون : عاش السلطان . . عاش حمار السلطان . . أيّها السادة قد تظنون أنّ هذا الحمار يمتاز عن الحمير بكونه يملك ذيلين فقط . . . مرّة ثانية يعود الناس لمقاطعة الرجل الأنيق بالهتاف . . تستمرّ أصواتهم ، وصيحاتهم فترة طويلة ، ويهدؤون مرّة أخرى . . . يمضي هو في خطابه : إنّ هذا الحمار يؤدي حركات لا يستطيع أيّ مخلوق أن يتقنها مثله .

الغريب في الأمر أنّ الرجل لا يتحدّث عن نفسه بصفته استاذاً لي إطلاقاً ، ولا يشير إلى جهوده ولو اشارة عابرة . هكذا هم العظماء . يتواضعون إلى حدّ الذلة : كان يمكن أن يخبر الناس عن جهوده وتعبه إلى درجة انّي ـ صاحب المذكرات ـ بلغت بفضله الاتقان في صنع ما يعجز عنه الانسان والحيوان .

غير أنّ الرجل الأنيق انصرف عن التعريف بنفسه ، واكتفى بتقديمي فقط ، فكانت الفقرة التالية مفاجأة للجمهور .

الرجل الأنيق يتطلّع إليّ كخبير في التنويم المغناطيسي ، يفكّر قليلاً ، وينزل من على المنصّة . يصمت الجمهور بصورة مفاجئة ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وتشرئب الأعناق إلى قفصي ، كأنّهم موتى يتطلعون إليّ بعيون مفتوحة . لا حركة ، لا صوت ، المكان هادىء مثل تمثال يعبر السنين بصمت وسكون .

وانطلقت الموسيقى حالما رفع الأنيق يده ، فأرى رجلاً يرتدي بدلة سوداء طويلة . أتذكّر الغرفة ، والصفيح الساخن لا وسيلة إلا أن أرفع قائمتيّ الأماميتين كي أهرب من النار . الجمهور صامت يتابع حركتي وإمارات الشوق واللهفة تخيّم على الوجوه . الحشد كلّه يكاد يأكلني بنظراته ، وتصمت الموسيقى ، فيعود الصفيح بارداً تحت يديّ . . .

الغريب أنّ الجمهور بدأ ينسى السلطان نفسه ، ويهتف . . حمار السلطان . . حمار السلطان ، والرجل الأنيق يقف ، ويومىء بيديه ، فيعود الهدوء ثانية . أسمع الموسيقى من جديد ، وأرى عناقاً بين رجلين ، لحظتها يسخن الصفيح تحت قوائمي الأربع . أبدأ أراوح في مكاني . ألقي نظرة حولي ، فأبصر الجميع يتحرّكون . . كلّنا نتحرّك . . الجمهور من النشوة ، وأنا من النار !!

أحياناً كثيرة أحترم الرجل الأنيق لأنّه يسعى إلى راحتي ، فهاهو يقف على المنصّة ثانية ويخاطب الجمهور : أيّها السادة . . نعدكم بأنّ الحمار الاعجوبة سيقدّم فعالياته كلّ اسبوع . تأخذني دهشة ممزوجة بالغضب . سأعيش الحرارة كلّ أسبوع . . نعدكم بأنّه سيقدم فعاليات اخرى غير هذه . . يقاطع الجمهور عبارته بالاستحسان والهتاف . . . ينتظر إلى أن يصمت الجميع ، فأسمع كلمة تنساب كشلال ماء بارد فوق جسدي الساخن المتعب : أما الآن فهو متعب

من العمل ويعتذر لكم .

لكنّ الجمهور لا يقتنع بعبارة الرجل الأنيق . يظلّ يهتف : حمار السلطان . . حمار . . حمار . . يضطر صاحبي إلى النزول وتقديم فقرة الختام وهي أصعب حركة أقوم بها .

كدت أتهاوى من فرط الاعياء حين توقفت الموسيقى عن العزف . اضطررت للركوع على قوائمي مباشرة . ذكّرتني نظرة عتاب من صاحبي الأنيق ، فتحاملت على قوائمي ، ونهضت ثانية . الهتافات تعلو ، وتعلو . . في تلك اللحظة لا يتذكّر الجمهور إلا الحمار ، ولا شيء سواه . . . أحد الحاضرين يحاول الصعود إلى العربة ليطوّق عنقي بطاقة ورد . أنا متعب الآن ولا شهيّة لي في كلّ الأكل . يستلم صاحبي الأنيق الطاقة نيابة عنّي ، ويطوّق بها عنقي . ألتفت يمنة ويسرة لعلّ أسناني تصل إليها . لا أفكر بالأكل ، أريد فقط أن أبلّ ريقي بشيء رطب يخفف عنّي التعب والاعياء .

عندما وصلنا إلى القصر وجدت السلطان بانتظاري . مسح على عنقي علامة الرضا ، أمّا الرجل الأنيق فقد راح يكيل المديح لي ، فأسمع من السلطان كلمة تغمّني .

- من الضروري أن يتعلّم أشياء جديدة .

- لا شكّ في ذلك يا سيدي .

ويضيف صاحبي الأنيق :

- انّه يتقبّل الدروس سريعاً .

الاقتراح يعني عودتي إلى التعذيب ، وتحمّلي مسؤوليّات أكثر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وأدقّ . أنهق فأرى السلطان يرمقني بنظرة امتنان ، يظنّ أنّي نهقت استحساناً ، ورغبة في تعلّم المزيد من فنون الرقص والاستعراض .

أنهق محتجّاً مرّة ثانية ، وأدلف في قفصي بعد ليلة مليئة بالأتعاب ونهار مملّ . أضطجع على أرضيّة القفص الندية وأنا أفكّر بالتعذيب الجديد ، والرجل الأنيق ، وأسأل نفسي : يا ترى ما الذي سيعلّمني هذا الرجل على صفيح ساخن خلال الأيام القادمة .

- ٨ -

خلال وجودي داخل القصر السلطاني اكتشفت أموراً غريبة أخجل من نشرها . أعتقد أنّ قرائي من بني آدم يتهمونني بالتحامل على الجنس البشريّ ، ومحاولة تشويه سمعة الانسان والحطّ من قدره ، وقد أقسمت منذ البداية أن أدوّن الحقيقة كاملة غير منقوصة ، وأسجّل ما أراه بصورة موضوعيّة ، يتحكّم فيها عقلي وضميري ، وأحاول قدر الامكان ان أبعد عن أحكامي أهوائي ونزعاتي العاطفيّة .

من تلك الحقائق أنّ البلد يمرّ بأزمات داخليّة على رأسها اختفاء الكثير الكثير من السلع الضروريّة ، والخلافات الداخليّة بين أعضاء الحكومة ، فلم تجد الدولة شيئاً يصرف المواطنين عن الحديث والتفكّر

بتلك الصعاب إلا الحمار صاحب الذيلين ، فكنت أنا الشغل الشاغل للناس . يتحدّثون عنّي طول النهار ، وَيَرَوْن إبداعاتي كلّ أسبوع ، وفي الليل يجعلون مني حديث أسمارهم وندواتهم .

غير أنّ أخطر المؤامرات تلك المؤامرة التي كانت تقودها السلطانة نفسها . الأغرب من ذلك أنّ الخطط لا تستهدف السلطان نفسه ، ولا ترمي إلى الإطاحة به ، فهي تحبّه . كنت أنا المستهدف ، أعني الشخص الثاني في البلاد بعد السلطان .

الغبيّة تفكّر بعواطفها وتبعد عقلها . رأت السلطان يهيم بي طول النهار والليل ، فدبّت الغيرة في قلبها . تجاهلت حاجة الدولة لي . كانت تبيّتُ أمراً خطيراً تحت سمعي وبصري ، وأنا ساكت لا أنهق ، ولا أثير أيّة ضجّة كأنني أعمى وأصمّ وأبكم .

كانت المؤامرة بشعة إلى حدّ لا يصدّق !!

في البدء فكّرت بالسمّ ، لكنّها ـ كما علمت ـ لا تقدم على فعل ترغب فيه إلا بموافقة عرّافتها الخاصة . فاستدعت العرّافة ، وشكت لها من كثرة اهتمام الملك بي ، وتجاهله لها . . . وذكرت السمّ . . حذّرتها العرافة من أيّ تصرف انفعالي ، فموتُ حمار مثلي يثير شكوك السلطان ، ويعرّض الدولة لإشاعات تهزّ الوضع المتأزّم . . .

وشيئاً فشيئاً حاكت العرّافة خيوط المؤامرة بإحكام . . .

ادّعت السلطانة المرض ، واستلقت في فراشها تئن ، ولا تتحرّك إلا بالإشارة . جرّب الملك أكثر من طبيب وصفوا لها أدوية مختلفة . ضاعت محاولات الأطباء سدى ، واضطرّ السلطان للجوء

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إلى النجوم وقراءة الغيب ، فاستدعى العرّافة لتعالج زوجته المريضة . . .

وحضرت إلى القصر تلك المرأة الطويلة النحيفة التي نتأت عيناها كضفدعة ، وبرز عظم فكّيها مثلي . أخرجت شيئاً ما من كيس قديم علّقته حول كتفها . . أشعلت النار بالشيء المبهم ، فانتشر دخان ملأ الباحة ، رائحة أكاد أتخيّلها تكاد تخنق نفسي . سعل السلطان والسلطانة ، وعلمت من سعالهما أنّ رئتيّ تضيقان بالهواء ، فنفخت ، ونهقت . ظلّت العرّافة تدور حول الملكة المتمارضة وفي أثناء دورانها تتمتمُ بكلمات مبهمة شأنها كلّما تحدّثت . توقّفت بعد دوران وزعيف . راحت تتطلّع في السماء تارة ، وتقرأ في كتاب قديم أصفر اللون .

قالت : أتعرف سرّ الشؤم يا سلطان الزمان ؟

قال : هل عندك خبر ؟

قالت معترضة بعد تمتمة مبهمة :

النجوم تحتجّ حين أسألك أجبني : من أين لي بعلم النجوم !

هزّ السلطان رأسه مبدياً أسفاً عميقاً وتمتم :

- من أين لي بعلم النجوم ؟

قالت وعيناها تلسعان وجهي بنظرة حقد :

- الشرّ في بيتك يا جلالة السلطان .

- من أين لي بعلم النجوم .

قالت : أتعرف أنّ سبب أزمات البلد ومرض الملكة هو الحمار

الشؤم .

سأل السلطان متعجّباً : الحمار ؟

صرخت العرافة معترضة . لجأت إلى رطانتها ، ثمّ صاحت غاضبة : إذا خالفت أمري وخرجت عن الجملة السابقة أحرقت نفسك وقصرك .

اضطرب السلطان فجأة ، وارتسم على عينيه ووجنتيه . هلع وصفرة . . . أمّا العرّافة ، فتطلعت في كتابها ، وقلّبت بعض أوراقه ثمّ راحت تقرأ :

الحمار ذو الذيلين شؤم . الحمار ذو الذيلين شؤم . : . إن لم تتخلّص منه خلال عشرة أيام ماتت زوجتك ، وفقدت سلطانك . . . الحمد للّه الذي بعثني لأنقذ عرشك . . . وأشفي زوجتك .

عادت إلى تمتمتها المعهودة ، وتحوّلت عندئذ إلى السلطانة ووقفت قرب رأسها . كانت تحملق في وجه المريضة ، أو تمسح جبينها بخرقة صفراء تخفيها بين أناملها ، وبعد طول وقت صاحت : زال النحس . قالتها ثلاث مرّات ، فرأيت الملكة تنهض من على كرسيّها وكأنّ شيئاً لم يكن . . .

حدث كلّ ذلك ، والملك فاغر فاه ، متيقّن من زوال النّحس . . يفكّر ، بما جرى ، ويمكن أن يجري مستقبلاً . . . كانت العرّافة أشبه بواحة لجأ إليها فآوته من تعب وضلال ، عند ذاك رمقني بنظرة كره ، وانصرف إلى غرفته ، وهو مستغرقٌ في تأمّلاته .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٩ -

في اليوم التالي عقد البرلمان جلسة طارئة بدعوة من السلطان !!

رجالٌ مختلفو الأشكال والألوان والهيئات يدخلون القصر ، يجلسون على مقاعد خصصت لهم سلفاً ، تبدو على وجوههم آثار الجدّ والاهتمام . كانوا متلهّفين إلى سماع الخبر الجديد الذي دعاهم السلطان من أجله على حين غرّة .

قرأت عيون المجتمعين ، ورأيت الدهشة مرتسمة على الوجوه .

بعضهم ، انصرف ذهنه إلى احتمال حدوث حرب جديدة .

بعضهم ، يعتقد أنّ وفداً أجنبيّاً سيزور البلد لأمر هام .

مجموعة أخرى تظنّ أن كارثة طبيعيّة حدثت .

كلّ شيء محتمل . . . كلّ شيء يخطر على البال . . لم أقرأ في عيني أحد منهم توقّعاً عن الحمار صاحب الذيلين والمعجزة الغريبة .

كلّ شيء محتمل . . كلّ شيء يخطر على البال . . . لم أقرأ بعيني أحد منهم توقّعاً عنّي أنا بالذات !!

وأطلّ السلطان من باب القصر الرئيسي ، فنهض الحاضرون إكراماً له . . وقف أمام المنصّة . أشار إلى الحاضرين بالجلوس ،

وانتظر فترة غير قصيرة ليبدأ حديثه . . .

الحمدُ لله الذي أنعم علينا بمباحث لا تخطىء . . . بهذه الصورة افتتح كلامه . تطلّعت في الحاضرين فوجدت الخوف مرتسماً فوق عيونهم . كرّر عبارته السابقة ، وأكّد أن لاشيء يخفى على السلطة . . لم يتحمّل أحدهم ،- فصاح . . يا سيدي السلطان أطلب الرحمة . . . وإذا أردت أن أعلن أسماء المتآمرين ، فأنا على استعداد . . .

ذهل السلطان . . فقد اكتشف مؤامرة بالمصادفة ، يرجع الفضل في فضيحتها للحمار ، لا السلطة والمباحث أو التحرّيات . فشعرت بفخر لا مثيل له في حياتي السابقة ، وكان العضو المتآمر يشدّ انتباهي . . . أشار إليه السلطان بالوقوف ، وأذن له أن يتحدّث :

يا جلالة السلطان . . . كنت مصمماً على إخبارك ليلة أمس ، لكنّك تعجّلت في عقد الجلسة الطارئة . . . أمّا الجماعة فقد اتصلوا بي منذ فترة . كنت أنصحهم كلّما عرضوا الأمر عليّ ، ذكرتهم بفضل السلطان غير أنّهم تعللوا بحجج واهية .

وواصل المتآمر حديثه بنغمة حزينة وأسف ظاهر : قالوا السلطان أخفق في كلّ شيء . . الأزمات تزداد يوماً بعد يوم . . المواد مفقودة من الأسواق . . السرقات تنتشر في البلاد ليل نهار . . واتهموا السلطان المعظّم بأنّه استورد حماراً عجيباً لغرض إلهاء الناس . كانوا يتحدّثون عن أشياء غير موجودة أساساً . . . أخيراً اتّصلوا بي وخططوا لقلب نظام الحكم . . .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كان السلطان حريصاً على إخفاء دهشته ليبدو كأنّه على علم سابق بمؤامرة الأعضاء ، والحقيقة أنّه عقد جلسة البرلمان لمناقشة مسألة الحمار ، فإذا به يكتشف من باب المصادفة مؤامرة الغرض منها الإطاحة به وبالحمار المسكين .

عاد السلطان إلى حديثه . قال إنّه سيعالج المؤامرة ، ويضرب أفرادها بيد من حديد ، وأكّد أنّ في البلد عيوناً ساهرة ، راقبت الفئة الضالة ، والزمرة الباغية ، والتفت إلى الرجل الذي فضحه خوفه ، وعيناه تقدحان شرراً . لا تظنّ أنّك ستنجو من العقاب . . . أشار بيده إشارة خفيفة ، فحضرت مجموعة قادت المسكين إلى حيث لا أدري ، واستطرد السلطان قائلاً :

هناك أشياء جميلة المظهر ، تخفي مخبراً دنيئاً وسخاً . . لا حاجة بي لضرب الأمثلة ، فهنا عندنا في الحكومة مثلان : هؤلاء المتآمرون والحمار النحس .

كلّ الأعضاء ينظرون إليّ نظرات حاقدة عدا المتآمرين . لمست نظراتهم تعاطفاً معي ، فنحن رفاق درب واحد ، لا ننتظر أقلّ من الموت .

المصادر الأمنية كما يزعم السلطان تخبره أنّ الحمار نحس ، ويدّعي هو أنّ أحد أعدائه اللدودين ألقاه في دولته لكي يجلب النحس ، وقد أرجع سبب الأزمات إلى وجودي داخل دولته ، وكان يقترح التصويت :

أحد الأعضاء يرفع يده ويقترح : الاعدام .

آخر يقول : الموت .

ثالث يدّعي أنّ الموت قليل بحقّي .

رابع يناقش : لنقدّمه إلى التحقيق ليكشف عن رؤوس أخرى . . .

الأهم والأخير . . هو قرار السلطان . السلطان وحده لا يشاركه أحدٌ في قراره .

يردّ على المجتمعين ، بأنّهم متعجّلون ، في تلك اللحظة تنفّست الصعداء . . . لقد نجوت من إعدام محقق . . . السلطان يقول : الإعدام للمتآمرين الذين اكتشف قضيّتهم مع الحمار النّحس من غير علاقة بين المؤامرتين . .

ويقف جلالته بزهو يذكّرني بغرور الطاووس ليفاجيء الجميع :

تذكرون السلطان حاكم السلطنة المجاورة . لقد أجبرنا على توقيع معاهدة معه . كنّا نتعامل معه من موقف ضعف . أنتم تعرفون قدرته على مهاجمتنا ، أقترح أن نقدّم الحمار هديّة له ما دام يجلب النحس ، وبهذه الطريقة ننتقم منه شرّ انتقام .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

القسم الثاني

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ١ -

استقبلني السلطان الجديد بحفاوة بالغة ، وعدّني هديّة تعبّر عن مكنون جاره ، عدوّ الأمس ، صديق الحاضر ، وفكّر في أن يبحث عن شيء تمتاز به مملكته غير مألوف في سلطنة الجيران لكي يقدّمه هدية بالمقابل لجاره السلطان .

يخيّل إليّ حين أتحدّث عن السلطان الجديد ، إنّي بصدد وصف حياة عاديّة لا إثارة فيها . الحياة هناك بسيطة للغاية . الحاكم نفسه ، رجل طيب يتأمّل كثيراً ، ويتحدّث بعد تفكير طويل . شخص لا يعرف الانفعال مطلقاً ، فتظنّ إذ تراه أنّك أمام فرد لا يعرف الحقد إلى قلبه أيّ سبيل .

حالما وصلت إلى القصر عجبت لأمر حسبت حسابه من قبل ، امّا أن يكون الرجل غير متزوّج أو فصل بين القصر الرسميّ وبيته ، فلم أر زوجته ، ولم أشاهد أيّة خادمة تُعنى بالغرف . كلّ من يقومون على الخدمة هم من الرجال ، وقد ازدادت شكوكي ، وأنا أراه يأكل ويشرب وينام ، ويقضي جميع شؤون السلطنة في قصره الرسميّ ، ولا يغادره إلا للضرورة القصوى .

هل أنا مجنون ؟ أم تراني أكاد أحلم ؟ لا أحد يدري ولا أحد

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يجيبني . . .

وعرفت في يوم ما ، مصادفة ، من البشر الذين يتدخلون فيما لا يعنيهم أنّ السلطان يعيش أعزب منذ عشر سنوات ، وقد رغب عن الزواج بامرأة أخرى لأنّه كان يحبّ زوجته الأولى ، وفضّل أن تعيش في ذاكرته ما دام حيّاً على أن تأتي امرأة وتحتلّ مكانها .

حمدت اللّه على أنّي تخلّصت من حمل ثقيل . أشفقت على نفسي والسلطان ، عليّ لأنّي بعيد عن مؤامرات النساء ، وعلى السلطان لأنّه يعيش الماضي بكلّ جوارحه ، فالذكرى تختلج في كيانه ، يتخذها حاضراً ومستقبلاً ويرفض التخلّي عنها .

شيء غريب غير مألوف في عرف الحكام .

أظنّ أنّ البشر يتهمونني بالكذب ، لكنّي أقسم أنّها الحقيقة ولا شيء سواها .

السلطان بسيط طيب القلب ، وفيّ غير أنّه كسلفه تماماً ، وتلك هي نقطة ضعفه باعتقادي .

كان يؤمن كالسلطان السابق بالعرّاف ، والغيب ، والنّجوم ، بل هو أكثر تشدّداً في مسألة الفأل ، فلا يخطو خطوة واحدة إلا ويسأل عرّافه الخاص .

ما زلتُ أعيش الوهم إذن !

ومازال الخطر يحدق بي . . .

طبعاً دخلت القصر كأيّة هديّة غريبة ، وقد سارع السلطان الجديد إلى قبولي ، وحين رأيته تمكّنت هيبته من نفسي . رجل كثّ

الحاجبين ، طويل القامة ، شاعريّ النظرات ، صفات خاصة لا يحملها إلا رجل من صفوة البشر ، غير أنّي أصبتُ بخيبة أمل إذ رأيته يهتدي بالعراف ، ويطلب منه الحكم . كلّ هذه الاجراءات لكي يعرف جلالته سرّي ، فيدرك هل أنا فأل حسن أم لا .

حضر إلى القصر ، رجل قصير سمين البشرة ، يحمل حقيبة جلديّة ، ومجموعة كتب مصفرة . لا داعي لأن أشرح مأساتي طويلاً ، يكفيني ما لاقيت من مصائب على يد العرّاف الأوّل . كلّهم يتفقون في النتائج ، ويتحدّثون عن أشياء عامّة ، فيروح ضحيّة عموميّاتهم خلق كثير . . .

لذلك كنت في السابق أكره من أعماق قلبي العرّافين . . أكرههم إلى حدّ الموت . . لو أعطيت سلطة لنفّذت فيهم حكم الإعدام . الحقيقة أنّي أجد صعوبة في وصف مشاعري . كدت أنهار من الخوف فلا أقوى على الوقوف . . . وجهي مصفرّ ، لعابي يسيل من منخريّ . أنفاسي تتلاحق ، وقوائمي ترتجف . . . كلّ ذلك بسبب العرّاف الذي أثار حساسيتي وخوفي ، فازدادت شكوكي أكثر ، حين رأيته يقوم بأعمال السحر ، وهو يتطلّع فيّ ويتمتم .

ماذا يحلّ بي لو قال انّي نحس . . . للبشر أساليب مختلفة ولي استيعاب محدود ، فكيف لا أشكك بجنس يختلف عنّا كلّياً ، أسوأ الأمور الاعدام ، وان خفّ الحكم فالسجن المؤبّد . . تلك هي العقوبات المعروفة بحقّ النّحس الذي يلصقه البشر بي ظلماً وعدواناً . . . الأفكار تلعب بي يميناً وشمالاً . أصعد مع الموجة ، وأهبط . أروح لأقصى اليمين ، وأرجع نحو اليسار . أقف مكاني ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فأبصر العراف يدور حولي . يقرأ كتبه ويتمتم ، وأنا أنتظر الحكم عليّ . . . الإعدام أو السجن أو النفي . . .

فجأة . . . يحدث مالم يكن في الحسبان .

فجأة . . . يتوقّف العرّاف ، وكأنّ وقوفه تغيير للتاريخ كلّه . . . تغيير للسياسة كلّها . . .

فجأة يشخص المستقبل أمامي ، ويعلن العراف عن شيء جديد . كان صوته دافئاً حنوناً رخيماً ، يذوب رقّة وفتنة . . . سيدي جلالة السلطان . . حافظ على الحمار الذي عندك فهو بشارة خير وحليف سعد .

النشوة تغمرني إلى حدّ الاسراف . . . هكذا . . . هكذا . . . أيّها الاخوة البشر ، تحوّلت بين عشية وضحاها من نحس وشرّ مطلق إلى خير مطلق . . العالم يرغب في سعادتي ، والسلطان يكنّ لي كلّ احترام وتبجيل . . . أبصر العراف يفخر باكتشافي ، وينظر إلى الملك نظرات ذات معنى . . . كلّ ما يهمّه أن يأخذ أتعابه وليكن المستقبل أيّة صورة ، أمّا الملك فقد تهللت أساريره ، واستبشر خيراً بي . نادى على الوزير وأعضاء الحكومة ، وتحدّث معهم طويلاً بشأني .

استمر الاجتماع ساعات ، وساعات . . . والسلطان يصغي إلى أقوال الأعضاء . لم يحاول أيّ واحد منهم الطعن فيّ . قالوا : السلطان الجار عجز عن هزيمتنا فاضطرّ إلى الرضوخ ، ووجدها فرصة مناسبة لتعزيز العلاقة . . . وحين اكتشفني أحبّ أن يقدمني هدية إلى جلالة السلطان . . . بهذه الصورة علّل البرلمان هديّة السلطان الجار ، أمّا السلطان صاحبي الحالي ، فقد أكّد للبرلمان على

انه سيستمر في تعزيز قوّة سلطنته حتّى تظلّ محطّ احترام كلّ الدول القريبة والبعيدة .

- ٢ -

لم تكن حالتي في اليوم التالي أحسن منها في اليوم الأوّل ، والسبب يرجع إلى اقتراح من بعض أعضاء البرلمان . أراد بعضهم أن يبديَ ولاءه لجلالة السلطان ، فوجدها فرصة مناسبة للحديث عني ، وما كان من الأعضاء الباقين إلا أن يوافقوا على الفكرة بعد أن طرحها ذلك العضو مباشرة كأنّهم يتسابقون في إظهار ولائهم أمام صاحب الجلالة .

الفكرة المطروحة هي قبول الهديّة مع التحفّظ بعض الوقت ، خشية من أن أكون حاملاً بعض الأمراض ، أو ملغوماً بجهاز ينصت على القصر .

تعرضت لتفاصيل طويلة ، وخضعت لفحوص دقيقة . المحقق الذي أحضروه أمامي ، رجل صارم الأوامر ، قاسي العبارة ، غليظ الشفتين . استنطقني بصلافة :

- كم هو عمرك ؟

- ماهو عملك ؟

- أين كنت قبل التحاقك بخدمة جارنا السلطان المعظّم ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

متى التحقت بفرع المخابرات . . .

ضجرت من أسئلته ، فنهقت نهقة طويلة تعبّر عن اشمئزازي ، كانت نهقتي فألاً سيئاً دفعت المحقق إلى الغضب وجلعته يعتقد أنّي أعاند . .

سيدي المحقق : أفهم لغة البشر ، ولا أستطيع التحدّث بها ، تلك هي نقطة ضعفي !!

التقط الرجل سوطاً على دكّة قريبة وراح يجلدني ، وعندما تعب جلس يلتقط أنفاسه ، ويختلق أسئلة عجيبة غريبة :

- لم اختاروك أنت بالذات ؟

- لِمَ تحوز على ذيلين لا ذيل واحد ؟

- كم مهمة كلّفت بها من قبل ؟

اكتشف في نهاية التحقيق نقطة ضعفي ، فأحضر انبوباً طويلاً وجّهه نحوي ، فتدفّق الماء منه بقوّة . شعرت ببرودة تجمّد مفاصلي ، فنهقت ، ونهقت ، والماء يتغيّر بين ساخن وبارد . . .

بعد وقت طويل اقتنع الرجل ببراءتي . أمر تابعاً له أن يكتب الآتي : إلى الجهات المختصّة . . بعد تحقيق طويل ، وطرق تأديبيّة خاصّة . . اكتشفنا أنّه يجهل جهلاً تامّاً لغة البشر ولا يحمل أيّة أجهزة خاصّة ، وليس إنساناً يختفي بجسد حمار ، إلا إذا كانت حالة تقمّص أرواح ، وهذا غير مجال اختصاصنا . الجهات الأمنيّة تتحمّل مسؤوليّة تخصصها فقط . . . وبأسفل الكتاب ملاحظة : يحال المذكور أعلاه إلى طبيب للتأكّد من سلامة بدنه .

وخرجت من دائرة التحقيق معصوب العينين كما دخلت إليها سابقاً . . .

وحين وصلت إلى المستشفى ، رأيت النور ثانية ، بعد أن أزيلت الرقعة السوداء التي لفّت على عينيّ بإحكام ومنعتني من رؤية بعض المحققين . . .

في المستشفى تعرّضت إلى فحص دقيق شمل كلّ عضو من أعضاء جسدي . الأسنان ، المعدة ، العيون ، العظام . خضعت إلى آراء متباينة ، واجتهادات مختلفة . كلّ طبيب يدخل يوافق الآخر أو يخالفه ، غير أنّي حقنت امصالاً ، وشربت سوائل ، أشاعت الهدوء في نفسي ، والراحة لجسدي المتعب من التحقيق .

ثمّ عدتُ بسلام إلى قصر السلطان الذي قرأ الكتب الصادرة إليه من المصادر الأمنيّة والصحيّة ، فأقرّ إقامتي في قصره ، وخصص لي مكاناً بين الممرّ الخلفي وغرفة غريبة تقع في أقصى الحديقة .

لم يطل الوقت حتّى حرفت سرّ الغرفة . كانت تضم قبر المرحومة زوجة السلطان ، وقد فضّل أن يدفنها بالقرب من قصره ويبني قبّة فوق المرقد يؤوي إليها كلّما عاوده الضجر . يتأمّل أحياناً . يغفو دقائق عند القبر . كان يذهب بمفرده ، ويصحب بعض الأوقات عرّافه الخاصّ !!

العراف شخصٌ ظريف يحبني . . اعتاد أن يرمقني بنظرة حنان كلّما مرّ بي . . . ويؤكّد للملك انّي فاتحة خير ، وعلامة فأل حسن . سمعته يوم عدت من التحقيق يحثّ السلطان على اتخاذ أمر خطير . . . صحب جلالته إلى قبر المرحومة . . . اختفيا عن عينيّ .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

غابا طويلاً ربّما أكثر من ساعة ، لا أدري بالضبط ماذا فعلا هناك ، فبعد اجتماع طويل خرجا والاهتمام بادٍ على وجه جلالة السلطان . اقترح العراف على جلالته أن يتأمّلا فيّ قليلاً . . رفع أحد ذيليّ لا أذكر ، الأعلى أم الأسفل ، وتطلّع بوجهي ، ثمّ تمتم ببضع كلمات ، وتحوّل عني إلى الملك كأنّه يؤكّد صحّة ادعائه :

- كما قالت لي النجوم يا جلالة السلطان .

- هل من جديد ؟

- إنّه فاتحة خير ، وعلامة فأل لا تستحقّ التأخير .

- وماهو الأمر الذي تلزمني النجوم بالتعجيل فيه .

- النجوم تقول : عرشك بلا وريث .

قطب السلطان حاجبيه . تلك اللحظة غيّمت سحابة حزن على عينيه ، فبدا أكبر من عمره ضعفاً كان يعيش الماضي بكلّ جوارحه ، ولا يريد الانفصال عنه ، لا أغالي إذا قلت ، إذا خيّروه بين الماضي والعرش ، فإنّه يختار الماضي على العرش ، نقيض السلطان السابق الذي يعيش مستقبله بلا ماض . السلطان الجديد ينفصل عن حاضره انفصالاً تامّاً ، عدا لحظات يحسّ بالحاضر واجباً عليه أن يؤديه ، وفق هذه الفكرة يحافظ على عرشه . كلّ الأمور الآنيّة والمستقبل يعدّها واجباً ، أمّا عواطفه ، ورغبته فيجسّدها الماضي فقط . كان يهزّ رأسه ويجيب :

- أواثق من تفاؤلك ؟

العرّاف يردّ : ثقتي من كونك أنت أنت ، وأنا أنا !!

ثم ينحني للملك ويكرر :

هذا حكم النجوم ولا دخل لي فيه .

- ٣ -

صباح أحد الأيام استفقت على ضجيج صاخب . لم يكن اليوم عادياً بالمرّة . أصخت السمع ، فسمعت أصواتاً مخيفة تصدر عن بعد ، وسمعتُ الضجّة تعلو ، وتعلو . . . ظننت نفسي أحلم ، هززت رأسي أطرد النعاس من عينيّ ، وقفت على قوائمي الأربع . . . وكان اليوم رهيباً ، مليئاً بالأحداث المدهشة .

منذ الصباح وأنا جائع ، لا أحد يفكّر بي وبطعامي . أنهق فلا يسمعني أحد ، السلطان مشغول ، وقد أخرجته الضجّة والأصوات من تأمّلاته . بدا واقعيّاً أكثر من ذي قبل . يستقبل المسؤولين في قصره . موظّفون يدخلون وآخرون يخرجون . . . القصر مليء بالحركة ، والأصوات تزداد ضجّة ، ومازال مَنْ في القصر مشغولين عن تقديم الطعام لي . . .

استدعى السلطان ضحى ذلك اليوم رجلاً يرتدي بدلة خاكيّة ، وتشاور معه حول أمر خاص . بتّ أعتقد أنّ الدولة تعيش انقلاباً عسكريّاً ، أو ثورة مدنيّة ، وسيضطرّ السلطان إلى دعوة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

البرلمان للانعقاد ، اجتمع بأكثر من شخص ، ودعا مجموعة أشخاص مسلّحين ، طلب منهم إحضار العرّاف ، فحضر المسكين بهيئة تثير الشفقة .

كلّ شيء واضح وغامض في هذه البلاد العجيبة ، الحمار متّهم مرّة أخرى ، فهل يُتهم المسكين بقيادة محاولة انقلابيّة غير ناجحة ؟

سأل السلطان العراف محتدّاً : أمتأكّد أنت من أنّه يجلب الفأل الحسن ؟

- ذلك ما أخبرتني به النجوم .

- تأكّد من قولك مرّة أخرى .

قلّب العراف صفحات الكتاب بيد مرتعشة . كنت أراه يرتجف ، ويطلق تمتمات غير مفهومة إلى مالانهاية . . . يدور حولي . . . يحرق أشياء يطلع منها دخان ، وينفث الهواء باتجاه مبخرة ، يمسح على جبهتي ، ويتطلّع بعينيّ . . . بحث عن الجنّ في الأرض والسماء وناجاهم ، تطلّع إلى النجوم واختبرها ، أطال التمتمات وفي كلّ مرة يستنتج أنّي فأل حسن .

يسأله الملك بريبة : قد يكون فأل ما نحساً في بلاد أخرى ؟

كان العراف يجيب بالنفي . بقي السلطان في شكّه . التفت إلى الحرس ، وقال بصوت غاضب :

- خذوهما . . .

ثمّ هدّد العراف : أنت شريكه في الجريمة !!

سارع الحراس ، وغطّوا عينيّ العرّاف بمنديل أسود ، وتوجّه

نحوي شخصان غطيا عينيّ بمنديل آخر ، ثمّ نقلونا إلى مكان أعرفه جيداً . . . هو غرفة السيد المحقق الذي حقق معي المرّة الاولى .

هذه المرّة أنا والعرّاف . . . لكنّه قد يكون عرف الأسئلة واختبرها أفضل منّي لأنّ المحقق كان يتكلّم بلغته هو . سحبني شخص بطريقة مدهشة إلى الوراء ، وصفعني آخر على منخري . فدفعت إحدى قوائمي الخلفيتين إلى الوراء . جاءت الركلة بالعرّاف المسكين صديقي المخلص الذي تهاوى على الأرض ، فسحبه أحد الرجال ورفعه أمام المحقق . . . عند ذاك رأيت الدم يسيل من منخريه ، فساورني شعور بالذنب . . أنا أعذّبُ الرجل الوحيد الذي يثق بي ولا يتّهمني . . . كلّ هذا يحدث والمحقق يتطلّع فينا نحن الاثنين ، ثمّ يأمر رجاله بالتوقف عن الحركة . . .

وكان يقرأ على العراف أسئلة ، ويطلب منه الاجابة عليها

- هل لك علاقة بالحمار قبل وصوله إلى القصر ؟

- هل اشتركتما معاً في بعض العمليّات ؟

- كم مهمّة نفّذت ؟

- من هم أصدقاؤك في الداخل والخارج ؟

يلتفت إليّ ويقول باستهزاء : تدّعي أنّك تجهل لغتنا . . إنّك ممثّل جيد بلا شكّ . تعرف عدداً من اللغات وتدّعي الغفلة أمّا أنا فسأجعلك تتكلّم رغماً عنك .

- كيف جئت إلى هنا ؟

- منذ متى تعرف العرّاف ؟

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- من هم أصدقاؤك داخل سلطنتنا ؟

ويتوقّف عن الأسئلة ، ثمّ ينصرف إلى العرّاف !!

مرّت لحظة احتقرت خلالها صديقي . ليتني لم أره بهذا الوضع ، أقول أنّ المشهد الذي رأيته لم يلغ حبّه من قلبي ، موقف متناقض أعيشه كلّما تذكّرت العرّاف . كيف أحبّ إنساناً أو حيواناً أحتقره ؟ رأيته ينحني على يد المحقق ويقبّلها . يبكي ويتعذّب . . . يتذلل إلى درجة يألف منها الحيوان . يطلب الرحمة حتّى إذا يئس انحنى على يد المحقق يقبّلها ، والأخير يكيل له الشتائم ، والصفعات ، ويتّهمه بالتآمر والانحراف .

فجأة . . . يدوّي صوت رهيب لا أعرف مصدره . صوت قويّ يثير فيّ الرغبة والخوف . . . علا صوت صفير من بعيد ، فهرول الرجال والمحقق يسبقهم إلى مكان مجهول . تركونا فترة ، وعندما خيّم السكون عادوا إلينا ثانية ، ليستأنفوا استجوابنا . . .

وقد كتب عليّ أن أعيش مع العراف الطيب بضعة أيّام ، كلّ يوم تكال لنا الشتائم ، والركلات ، نسمع دويّاً وصفيراً ، فيختفي الرجال ، ويعودون إلينا حال انقطاع الأصوات والصخب ، كأنّ المدينة أصبحت محمومة تتحرّك فجأة وتقف على المجهول .

لم يؤلمني الوضع الراهن بقدر ما آلمني أن أعيش متناقضاً مع نفسي . . . أحمل الحبّ والاحتقار في وقت واحد ، والأصوات الصاخبة الهادرة تعلو من حولي وتطغى على عواطفي . . . أكاد ألتمس نفسي فأراها تحوّلت إلى دويّ وانفجار أيضاً .

هكذا بدأت الحرب

وهكذا أرادها الحاكم السابق .

وربّما ستكون نهايتها بهذه الصورة .

ظنّ سيدي السابق أنّ وجودي في القصر يجلب النحس للحاكم المجاور ما دمت عنده ، فشنّ عليه حربه . كانت القصّة ترجع إلى الماضي البعيد . هناك منازعات حول الحدود ، وخلافات فكريّة بين الاثنين ، وليس عند الحاكم السابق قوّة تضاهي قوّة غريمه فوقّع معاهدة معه على مضض ، نزل فيها عن بعض أراضيه كما يقال . . .

ثمّ حدث أن مرّ البلد بأزمة خانقة ، فأحضرني السلطان إلى قصره ، وأعدّني لأخفف عن الناس بعض مآسيهم ، لكوني أحمل ذيلين ، ولأنّي أيضاً أجيد من الفنون ما لايجيده البشر والحمير . . .

حتى اكتشف السلطان أنّي أجلب النحس ، فقرر تقديمي هديّة إلى غريمه ! وهو واثق كلّ الثقة من عرّافه والنجوم ، وعرّافة زوجته أيضاً ، لا أمدح نفسي إذا قلت كانت مرائية حين قالت انّي أجلب النحس فتعجّل الحاكم وبعث بي إلى السلطان صديق الحاضر ، عدوّ الأمس .

والأغرب من ذلك - انّ الحمار - صاحب المذكّرات نفسه آمن بفكرة النحس الملصقة بي ، وكاد لا يصدق خبراً سمعه من عرّاف السلطان الجديد . الانسان مقياس الأشياء . الانسان يختلف في نظرته من موقع لآخر ، فكيف نعدّه مقياساً للأشياء . من الممكن أن نقع في خطأ قاتل كالخطأ الذي حدث للسلطانين المتجاورين ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فتحدث مأساة جسيمة . من الأفضل أن نغيّر المقولة السابقة ونعدّها بالصيغة التالية : الحيوان هو مقياس الأشياء !!

- ٤ -

الحاكم السابق تعجّل في قراره ، وشنّ حربه على جاره ، وكلّه ايمان راسخ أنّ الشؤم موجود في البلد . الأيام الاولى للحرب أحرز انتصارات مهمّة أربكت السلطان صاحبي ، فعقد البرلمان ، ووجّه التهمة إلى العراف ، فعذّب معي داخل قسم التحقيق ، ثمّ حدث مالم يكن في الحسبان . . أمور لا تصدّق . . يسمّونها : الحقيقة أغرب من الخيال ، وأنا أسمّيها جنون البشر . . . أيّها السادة كفّوا عن الحيوان شرّكم ، ودعوه يعيش بسلام .

اليوم يسقط الحمار ، وغداً يعيش الحمار .

اليوم العرّاف متآمر ، وهو غداً مبجلٌ ، وعالم جليل يعرف أسرار الأرض والسماء .

في ذلك اليوم هدأت الأصوات ، فرأيت المحقق ينظر إليّ بعطف . . . وضع أمامي طعاماً شهيّاً ، واعتنى بالعراف المسكين ، واعتذر له بأدب عن خطأ غير مقصود .

ثمّ انفرج الباب ، وإذا بالسلطان نفسه . . . حين دخل عانق العرّاف مباشرة . لم يعتذر منه ، فليس الاعتذار من شيمة الملوك . . . عرفت بعد ذلك أنّ جيش جلالة السلطان أحرز انتصاراً

حاسماً على غريمه المعتدي ، فتبيّن خطأه وندم على عجالته . جاء بنفسه إليّ . لقد عدّني أعظم فأل بحياته . الحمار صار صاحب النصر !! بسبب الحمار حلّ السعد في المملكة . السلطان السابق يرضخ ذليلاً ، والسلطان صاحبي يفرض شروطه ، وبفضلي يسمي نفسه بطل النصر والسلام .

امتطى السلطان ظهري ، وكان العراف يقود اللجام . سرنا في شوارع المدينة ، فرأيت أعلام الوطن ترفرف على الجدران ، وأشجار الزينة والأنوار تضفي حلّة بهيجة على البيوت . . . جميع السكان يصطفون على الأرصفة يحيّون جلالته . بعضهم يحمل صور جلالته . بعضهم يرسم على الحيطان صوراً لي . آخرون يخطّون صور الأفلاك والنجوم تحت أقدام حمار ، حتّى وصلنا إلى الساحة العامّة ، فوقع بصري على نصب كبير لجلالته ، يقود بيده اليمنى حماراً من لجامه ، ويحمل بيده اليسرى نصباً صغيراً للأفلاك والنّجوم ، ومن الساحة العامّة توجهنا إلى القصر ، فمجلس البرلمان .

ولم يكن لأعضاء المجلس حديث سوى قضيّة النصر الجديد ، ومحورها السلطان المعظم والحمار الفأل الحسن . تحدّث الأعضاء عن معاهدة جديدة بين السلطنة ، والسلطان المجاور المهزوم ، سيحضر هنا ليعقد صلحاً ينزل فيه عن بعض أراضيه الحدوديّة ، ويدفع مبلغاً من المال تعويضاً للسلطنة عن خسائر الحرب .

وقدّم الأعضاء اقتراحات مختلفة : عضو يقترح اسم جلالته على الساحة العامّة . آخر يرى أن نسمّي الشارع الفلانيّ باسم

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

(شارع الحمار) . ثالث يطلب تصريحاً بإطلاق اسم العراف على منتزه عام . . وقد قبلت كلّ الاقتراحات ، وفي نهاية الاجتماع حيّا جلالته الأعضاء ، وانصرف يعدّ العدّة لاستقبال ضيفه المهزوم .

- ٥ -

كان يوم له طعم خاص .

ذلك اليوم أكبر من قدراتي على الوصف .

أنا الحمار المسكين المطرود . . . أستقبل مع سيدي السلطان جارنا السلطان المهزوم هنا في القصر . كان حضور الخصم يعني إذلالاً له ، واعترافاً بالهزيمة . رأيته رث الحال حزيناً . لا شكّ أنّه يتجاهلني ، ويحاول نسيان ما حدث . هو الآن آسف على طردي يودّ لو استرجعني مرّة أخرى ليشنّ حرباً جديدة . عرفت فيما بعد أنّه أصدر حكماً بالإعدام على العرّافة السابقة . لشدّ ما آلمني الحكم ، فأنا أكره العرافين ، لأنّهم يتحدّثون عن عموميّات معظمها صحيح ، يظنّها الناس خصوصيّات دقيقة . لا أحبّ العراف السابق ، ويحقّ لي أن أصفها بعد فعلها معي بأشنع الصفات ، محرّفة ، متآمرة ، كذابة ، منافقة ، غير أنّ إعدامها يعني بنظري إعدام المستقبل . اسم العراف كما أفهمه يرتبط بالنجوم ، وحركة الكون ، وللسبب ذاته أشمئز من عمليّة إعدامها ، وأراها تمثّل نوعاً من التجاوز على المستقبل .

وددت أن تعيش هي ، ويعدم السلطان زوجته فهي السبب الأول والأخير للمأساة ، وقد أسفت لأنّي لم أسمع عنها أيّ خبر . لاشكّ في أنّها ذكيّة خبيثة استطاعت التخلّص من عقاب السلطان ، وألقت خسارة الحرب كلّها على عاتق العراف المسكين .

كان سلطاننا المعظّم يتحدّث من منطلق الثّقة بالنفس ، ويفرض شروطه على صاحبي السابق . الاجتماع يمثّل برأيي عمليّة ابتزاز . لم يحضر اللقاء سوى السلطانين ، ولا أظنني واهماً حين أقول سيعرض سلطاننا المعظّم على عرّافه شروط المعاهدة .

رأيت السلطان الجار يقبل الشروط وهو صاغر . أمضى بنود الاتفاقية ببطء شديد كأنّه يودّ لو قبض على الزمن بإحكام ، وأرجعه إلى ما قبل سنوات الحرب ، فكلّ الأسباب التي بدأ بها حربه نزل عنها . الخوف غلب على حيائه . سيكشف الاناس أنّي أشمت به . أقول نعم . لا أنسى سوء نيّته معي . أشمت به الآن لكنّي لا أحقد عليه ، وهو نفسه يعرف الأمر ، فيتجاهل النظر إليّ .

الآن يحلو لي النهيق . أراه يعانق سلطاننا المعظّم ، ويضمّه بانكسار ، فرفعت صوتي عالياً أهتف بحياة السلطان وحياتي ، وأدقّ اسفيناً من الشماتة بيني وبين أعدائي . نحن الحمير لم ندخل حرباً ، ولم نسفك دماء ، لكنكم أيّها السادة البشر جعلتمونا نشمت بكم . كنت أنهق وأنفخ . . . ابتسم سلطاننا المعظّم نحو ضيفه الثقيل ، وقال شامتاً :

- أتذكّر هديتك الجميلة ؟

التفت إليّ السلطان السابق مرغماً . التقت عينانا ، فرأيت في

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عينيه علامة ندم ، وعتاب . عرفت أنّ ندمه يغلب عتابه . قال يحلم بمستحيل أطلّ عليه لحظة يأس ثمّ اختفى :

ـ قد يمرض الحمار فابعثه لي . لدينا أطباء يعتنون به .

ـ لدينا أطباء مشهورون أيضاً .

قال عبارته بصلف وغرور وعقّب :

ـ ربما نكون بحاجة إلى أطبّائكم ، وسيكونون في ضيافتنا .

هزّ رأسه يتمتم :

ـ إذا رغبتم في ذلك .

كان السلطان السابق يحاول يائساً :

ـ لعلّه يحنّ فيرغب في زيارة قصيرة إلى مسقط رأسه .

آخر ما كنت أتصوّره أنّ السلطان السابق يدفعه لؤمه إلى الغدر . نظرت في عينيه شامتاً . ضربت الأرض بقائمتين ، وكنت أتحدّاه . لم أرفع بصري عنه حتى خفض بصره ، والسلطان صاحبي ينظر إليّ وهو فخور بي . كان يقول لغريمه بصورة غير مباشرة : بهذا الحمار هزمتك ، وسأهزمك به دائماً .

ولم تطل إقامة السلطان المهزوم في البلاد . فقد رحل حال انتهائه من توقيع المعاهدة ، وكأنّ الحاكم صاحبي سلب منه آخر خيط للكبرياء ، وهو يعرضه عليّ ويتحدّاه بي . وحين رحل شعرت أنّي الشخص الوحيد في العالم الذي يكرهه ولا يشفق عليه .

ـ ٦ ـ

اتصل الحاكم بالعرّاف مباشرة وعرض عليه بنود المعاهدة . عندئذ اقتاد العراف السلطان قريباً من قفصي وعلى شفتيه ابتسامة عريضة :

ـ أنا أتفاءل بهذا الحمار دائماً .

قال العراف بلهجة حزينة : لكنّي أرى غمامة سوداء وسط النجوم تلفّني وحدي .

ـ أنت الذي تعرف سرّ غيرك ؟

ـ نعم ليس هذا غريباً .

ـ لا عليك منّي الآن ، عليك بنفسك .

استغرب السلطان من لهجة العراف الغريبة وسأله مستنكراً :

ـ ماذا هل قرأت في النجوم أيّ مكروه ؟

ـ بالنسبة لك كلا . دعك منّي الآن ، ولنتحدّث عنك أنت بالذات ؟

ـ وماذا عنّي أنا ؟

ـ أنت الآن بطل النّصر ، وجودك وأنت أعزب بصفتك رمزاً معناه تحدّ للمستقبل أو محاولة لايقافه بعد النصر العظيم الذي حققته . لا تنسى أن الجمهور سيطالبك بأن تتزوج لتخلف من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

يعقبك على العرش .

نفث السلطان نفساً طويلاً . وردّ على العراف متحسّراً :

- أراك كتوماً للسرّ ؟

- هل تعتقد أنّي أخونك ؟

- حسناً ، ماذا تقول في رجل عقيم . لا تفسّر قولي خطأ لم أقل عاجزاً بل عقيم .

فغر العراف فمه مندهشاً ، أمّا الملك فقد عقّب :

- أتقدر أن تساوم النجوم فتجد دواء للمرض .

- نحن نستطيع أن نقرأ الحدث لا أن نغيّره . هل أقدر على دوران الأرض ؟ هل أقلب نصراً مكتوباً بين الأفلاك إلى هزيمة ، أو هزيمة إلى نصر . كلا يا جلالة السلطان .

كم أنا أبله . ظننت السلطان طول المدّة السابقة وفيّاً ومخلصاً ، وإذا بي أكتشف عقمه . من يدري لعلّه عنين يخجل من أن يفضح نفسه ، لولا رغبة من أمل لما فاتح العراف بالموضوع . المهمّ أنّ المسألة خرجت من يد صاحب الجلالة نفسه ، ماذا يقول للناس . كيف يعلّل بقاءه أعزب للمظاهرات التي ستخرج ، وتطلب منه المضي في النّصر ، وتوكيد المستقبل . انتشلني من أفكاري قول السلطان الأخير :

- ما دمت قرأت أنّ بين النجوم غمامة سوداء تلفّك ، فسأفسر لك ، وأنت سيد العلماء ما تعنيه .

توقّف برهة ثمّ استطرد :

- علّمونا ونحن صغار أن الأبيض في الحلم حزن والأسود فرح !!

- لكنّ هذا ليس حلماً . . .

- لا خلاف بينهما . ستذهب الليلة إلى فراشك ، وتفكّر . تعامل مع النجوم ، واختبرها ، وحين تعجز عن ايجاد حلّ . . . عندئذ سأقترح عليك أنا .

- قبل أن أذهب أودّ أن أبدي ملاحظة عابرة .

- سأقبل اقتراحك من دون تردّد .

سلّط العراف عينيه الثاقبتين عليّ وقال بابتسامة عريضة :

- مادام الحمار فألاً حسناً فلماذا لا نضاعف الفأل يا جلالة السلطان ؟!

وقع الخبر عليّ وقوع الصاعقة . أنا ؟ . . أنا أتزوّج . . أتزوّج رغماً عني . حاولت أن أكذّب عيني . نقمت على العراف صاحبي تلك اللحظة . . . وددت لو أركله حتّى أهشّم أسنانه . كان الملك مصمماً على مضاعفة النصر . وكنت مصمماً على الرفض . رفعت صوتي عالياً . . أستنكر . . أشجب . . أركل الأرض برجلي ، والعراف يشير إليّ بإصبعه ، وهو يحدّث السلطان :

- انظر إليه كم هو فرح .

- وهل تعرف الحيوانات لغتنا

- بلاشكّ يا جلالة السلطان .

- كيف نحكي إذن أسرارنا أمامه .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- الحيوانات يا جلالة السلطان تسمع وتنسى بعد لحظة .

فغر السلطان فمه . كانت الرغبة تدفعه إلى أن يسأل أكثر وأكثر ، وفمه يبتلع السماء والنجوم ، ليوقف حركتها ، ويتحكّم بها كما يشاء . أمّا أنا فكنت أنفر من نفسي . ما فائدة أن أعرف مستقبلي . لِمَ أعيش إذن . أودّ معرفة العموميّات فقط لا الخصوصيّات ، والعراف لا أدري بالضبط أعن خبث أم طيبة يحاول أن يرسم لي خصوصيّاتي ، ويعرّفني بالأيام القادمة . سأكون سعيداً جدّاً إذا قال لي أنّ بركاناً سينفجر في مكان ما بعد يومين أو سنة ، لكنّي أكون تعيساً إذا علمت ماذا يحصل لي غداً ، وفي غد يتمّ أمر زواجي على الرغم منّي . لو أنّ أحداً من البشر عمل العمل بنفسه مع ابنه لقالوا عنه قولاً لا يسرّ . يتهمونه علناً بأنّه رجعي ، ويصفون عمله على أنّه من مخلفات القرون الوسطى . . . الحمار يعامل بقسوة لا أحد يستشيره في مستقبله . لا أحد يفكّر بمناقشة الأمور معه يفسّر الناس ضحكي بكاء ، وبكائي ضحكاً . يسيؤون فهم الاشارة ، ويدّعون أنّهم رمزيون ، وقد أغاظني أنّ عرافاً يتعامل مع الرمز والنجوم ويدّعي فكّ الغموض ، يفهم الامتناع قبولاً . . .

انقلب بكائي ضحكاً . . ألم يقل البشر شرّ البليّة ما يضحك .

غطّى نهيقي هدوء القصر ، بينما تصافح العراف والسلطان ، وافترقا على حدث جديد ، تجسّد في كابوس ثقيل خيّم على صدري طول الليل .

- ٧ -

وفي يوم لا أذكره بالضبط اتخذ السلطان قراره النهائيّ . . .

كان يتكلّم بلهجة متقطعة كمن يدخل امتحاناً أكبر من قدراته ، ذلك الامتحان تهيّأ له ليلة كاملة داخل ضريح زوجته . كان يحاول أن يقطع بين ماضيه الذي يعيشه بكلّ جوارحه ، وحاضر لا يتذوّق طعمه . إنّها الحرب التي تغيّر كلّ شيء ، وتقلب الأمور إلى أضدادها ، هكذا خيّل إليّ إن كنت على صواب .

- قرّرت أن أتزوّج .

- كان لابدّ لك من ذلك بعد ما حدث !!

كنت أنصت ولا أعلّق بشيء ، مالي وللدخول بين السلاطين وإن كنت الشخص الثاني في الدولة . المفاجأة شلّت لساني والمستقبل مجهول أمامي . قد أتعرّض لمؤامرات خطيرة ومكائد من السلطانة لا يعلمها إلا اللّه . في الوقت نفسه أطلق السلطان عرضه الجديد :

- سيكون ابنك وليّ العهد .

اصطنع العراف الدهشة وسأل ببغاء :

- ماذا تعني يا جلالة السلطان ؟

- أعني سيكون منك ولدٌ يحمل اسمي .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

العراف يكاد يتهاوى أو يغمى عليه من المفاجأة . أنا فاغر فمي أكاد لا أصدّق . الملك رابط الجأش بعيد عن الانفعال . أخيراً يستعيد العراف وعيه ويسأل :

- الطبيب يعرفك عقيماً

قال السلطان ببرود :

- دع الأمر لي

ثمّ نهض وهو يربت على كتف العراف :

- تذكّر سيكون ابنك ولي العهد .

- لكنّي لا أجرؤ على النطق بذلك .

السلطان متجاهلاً :

- الطبيب كان يعرف قصّة مرضي ، وقد ظلّ محافظاً على السرّ إلى هذه اللحظة . . . وأنت بالذات . . .

قاطعه العراف :

- لن أخالف لك أمراً . أليس وليّ العهد من لحمي ودمي ؟

شدّ السلطان على يد العرّاف بحرارة . كان يرى فيه طموح المستقبل كلّه . ثمّ انصرف الرجلان كلّ منهما باتجاه ، وبقيت أنا وحدي في مكاني والدهشة تعقد لساني .

- ٨ -

كانت ليلة نادرة طريفة . فالفأل الحسن في طريقه إلى الزواج ، والعرّاف يفخر بأنّه قرأ النجوم فهدته إلى هذه الأتان ، وهو يؤكّد أنّ تزوج الفأل الحسن بالمشابه ، يضاعف البشارة ، فتصبح الدولة من أرقى شعوب العالم ، وتحتلّ قمّة التطوّر في جميع الميادين . . :

وكان يحاول دوماً أن يزيل مخاوف الملك : يا جلالة السلطان ، النجوم علم ، والعلم يقول المشابهة تتضاعف نحو الأحسن حين نزوّج أبيض ببيضاء نحصل على مولود أنصع بياضاً ، وحين نزوّج أسود ببيضاء تنقلب الآية وينتج عن اللقاح لون هجين . النجوم يا صاحب الجلالة تؤكّد العلاقة العلميّة ، وهي تتحكّم بالكون كلّه وتسيّر حياتنا وتقدر لنا كلّ شيء !!

وقد دخلت عليّ زوجتي من حركة النجوم قبل زواج جلالة السلطان بأسبوع تقريباً .

أتان جميلة واسعة العينين ، طويلة الوجه ، رشيقه القوام كالنساء ، بيضاء ، تنتشر أسفل ساقيها بقع سوداء جميلة ، لا ينقصها مقياس جماليّ قط ، غير أنّي أتجاهلها تماماً . لستُ مخلصاً لزوجتي

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

السابقة ، فالجنس في عالم الحيوان لا يُعطى أهمية مفتعلة شأن بعض البلدان ، ولا يُحاط بالسرّية التامّة ، كما فعل جلالة السلطان مع عرّافه . خلاصة القول ليس الجنس حسب فكرة الحيوان غولاً مرعباً . انّه شيء طبيعي ، لا نحيطه قطّ بهالة مفزعة . شيء نحتاجه مثل الهواء والماء والطعام . لا أنكر أنّ بي رغبة جارفة للقاء بأنثى ، فهذه الأتان الجميلة تثيرني وتحرّك غرائزي الكامنة ، مع كلّ هذه الاحتمالات ، فإنّي أبدو غير مبالٍ ، ولا أفكّر بعمل أيّ شيء معها !!

أنا صاحب مبدأ ، إذا أرغمت على شيء ، استعملت قوائمي . أركل بقسوة . كلكم يتذكّر جحا وقصّته مع الحمار الذي وضع حول عنقه جرساً وأمره أن يجرّ الناعور ، واستلقى الرجل في بيته يسمع صوت الجرس . كان بإمكان الحمار ، أن يقف ويحرّك رقبته يميناً وشمالاً ، ولأنّه حمار أصيل ، فقد صمّم ألا يخون مبادئه ، وأنا حمار أصيل لا أخون مبادئي . لستُ هجيناً ، وأفتخر بانتسابي إلى جنس يحافظ على مبادئه .

كنت أحاول أن أكبت غرائزي ، ولا أنفعل بمظهر الأتان . لاحظت أنّها تأكل أكثر ممّا تتكلّم . أحضروا لها أصنافاً جيدة من الطعام فالتهمتها كلّها . ظننت أنّها قدمت من أرض لا زرع فيها ، وعجبت حين عرفت قصّتها . قضت أيّامها ترعى في حقل غنيّ بالزرع منذ الولادة ، بالأمس انتخبت من بين أتن كثيرة ، ولم تعرف ما هو مطلوب منها بالضبط حتّى أحضرها الحرس إلى قفصي .

تظاهرت بأنّي غير مهتمّ لسماع قصّتها ، وانشغلت عنها بخيالاتي ، ثمّ اقتادني الخيال إلى حلم بدا سعيد البداية تعيساً عند

نهايته . . . رأيت نفسي في المرعى السابق حيث السلطان المهزوم ، ولي جناحان أطير بهما فأشرف على المنازل وأرى أسرار البيوت . أشاهد من الأعلى كيف يتصرف الانسان ؟ كيف يعيش ، أرى فضائح البشر وكذبهم ، وكلّ واحد منهم يحاول أن يستر فضيحته خلال الليل . سأكون مرائياً إذا قلت أنّ الناس يخادعون في النهار أكثر من الليل ، إلى أن ضجرت من مقامي على الأرض ، فارتفعت عالياً أحاول الفرار من الأرض .

كنت أسبح بين النجوم أركلها برجليّ ، فأغيّر حركتها من الشرق إلى الغرب ، ومن الغرب إلى الشرق . رحت أركل ، وأركل ، وأنا أتلذذ بتغيير نظام الكون كلّه ، فقد حملتُ مخلفات من الأرض طبعتني على المخالفة وتحويل الأشياء إلى غشّ . كانت الكواكب ترفض الخضوع لركلاتي ، وتظلّ تدور وفق حركتها السابقة ، فشعرت بهوّة عميقة تنحدر بي إلى الأسفل . . . إلى الأرض التي أستطيع أن أحرّكها كيف أشاء . كنت أركلُها شرقاً أو غرباً فتدور وفق قوائمي ، ولا تعاند مثل الكواكب والنجوم . عشت لحظات لذيذة ، والأرض تخضع لقوائمي . . .

فجأة . . .

فجأة . . . انبثقت من وسطها غمامة داكنة ، لون بين الرماد والسواد ، بدأ بالتقلّص وتحوّل إلى صديقتي الأتان ، فشعرت بالأمان وبردت أعصابي ، لم يمض الحلم عند هذا الحدّ . كان مكتوباً عليّ أن أعيش الرعب والعذاب بكلّ أبعادهما . البقع السوداء في أسفل قوائم الأتان تكبر ، وتكبر ، وتنقلب صاحبتي إلى وحش هائل يقذف

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الرعب والنار من منخريه . أين أذهب ؟ النجوم ترفضني ، وعلى الأرض يخيّم ذلك الوحش . أصبحت في نقطة التلاشي . ما عليّ إلا الاستسلام والقبول بالنهاية ، فالهرب لا يجدي نفعاً . رفعتني الأتان الوحش بمخالبها ، ونفخت على وجهي . كانت النار تذيبني فأتحوّل إلى كتلة من لهب ، ثمّ قذفت بي عالياً وبعيداً بعيداً . . . اصطدم رأسي بالنجوم ، فتهاويت ، وسقطت على الأرض . . . عندئذ فتحت عينيّ ، فوجدتني ممدّداً على أرض القفص ، وشعرت بالأتان تلحس أذني .

قالت هامسة :

ـ ألا ترغب فيّ ؟

بقيت صامتاً فأردفت :

ـ لماذا أنت عنيد ؟

هذه الأنثى الغبيّة لا تفكّر إلا بالطعام والجنس . لا تستطيع أن تكبح عواطفها . أنا سعدٌ وهي سعد ، والبشر أعداؤنا فلماذا نضاعف لهم السعد . يقولون البلبل يرفض التزاوج داخل القفص ، فلأكن أنا بلبل الحمير . لستُ حجراً ، والجنس شيء ثانويّ وفق رؤيتنا نحن . لا تهمّني عذريّة الأتان ، ولا أفكّر إن كان لها عشاق أو عاشق واحد . المسألة هنا تختلف أساساً وتتلخّص في أنّي أرغم على فعل شيء . دوري هو خلق السعادة لأناس يخلقون المتاعب ، لذلك أحاول أن أروّض أعصابي ، فلا تتأثّر بالإغراء .

حاولت أن تجد طريقها إلى فخذي فتلحسهما لتثير شبقي . استدرتُ إلى الناحية الأخرى . قلت :

ـ أنا متعب أرغب في النوم الآن .

كان الآخرون يراقبونني ، ويتطلعون إلى مواقعتي الأتان تطلعهم إلى زواج الملك . كلّ من في القصر يهتمّ باستمرار سلسلة السعد ، والعراف يؤكّد أنّ الأتان سعد ، تستطيع أن تنجب جحشاً يحمل السعد . لقد حققت السلطنة نصراً على الأعداء بسعد واحد . في المستقبل نقابل العالم بسعد ثلاثي . الرياضيات والحاسب الالكتروني والنجوم تسخّر لخدمتي . أصبح إنتاج حمار يعني آلة تدمير . الاهتمام واضح على وجه السلطان . كان يراقبني ويحلم بعظمة سيحصل عليها بعد مواقعتي الأتان .

قال للعراف : لعلّ هناك سرّاً ؟

قال العراف : رفضه يحيّرني .

ـ أتقرأ النجوم ؟

ـ لنعرضه أوّلاً على بيطار !

حضر رجل أصلع طويل نحيف البنية ، تبرز أسنانه الأماميّة كالأرنب تحت شفتيه العليا . تمعّن فيّ وفحص جسدي . مرّر آلاته قرب قلبي ، ومدّ يديه بين فخذيّ . كان يتكلّم بثقة غير عاديّة ويؤكّد لجلالة السلطان صحّة بدني وسلامته ، ثمّ ينتقل إلى صاحبتي البلهاء ، ويفحص جسدها كلّه . الغبيّة تستسلم لخدر لذيذ ، تتصوّر البيطار حماراً يغازلها ويداعب جسدها .

يقتنع الاثنان أنْ لا مرض ولا عائق يحول بين الحمار والأتان . أخيراً يبقى السلطان والعرّاف ، وينصرف البيطار . يستغرق جلالته

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

في تفكير عميق . تقطعه نهقة قصيرة منّي :

- بماذا تعلل الأمر ؟

- إنّه عادي .

- ألا يثير دهشتك ؟

- كلا فقد لا تعجبه الأتان .

كانت كلمته واضحة لكنّ الأتان تجاهلتها ، ومضت في الأكل من دون مبالاة .

- هل تقرأ النجوم ؟

- دع هذا الأمر الآن !

- ألا نتعجّل مضاعفة الفأل الحسن ؟

صمت العراف قليلاً وتحدّث : سيدي جلالة السلطان أفضّل أن أرجىء الأمر إلى ما بعد زواجك وحمل جلالة السلطانة .

- هل أتبيّن شيئاً مما تقوله ؟

- ستعرف بعدئذ .

- أهذه إرادة النجوم ؟

- نعم هذه إرادة النجوم .

كنت مستلقياً على جانبي الأيسر . . سوى انّي التفتّ جهة العراف . تمعّن بوجهي وابتسم ، وكان يودّع جلالة السلطان ، ويمضي في طريقه ، أمّا أنا فبقيت أحلّل كلماته . . . ماهي العلاقة بين حمل جلالة السلطانة والأتان في قفصي . السلطان أرغمه النصر على الزواج ، وأنا أرغم على الزواج لأخلق نصراً جديداً ، وكلا

العلاقتين تحكمهما في مثل هذه الحالة انثيان : الأتان داخل قفصي وجلالة السلطانة الموعودة . الحقيقة كنت أشعر بخوف من زواج الملك ، رجعتُ إلى حلم الليلة الماضية لأخلق أو أكتشف علاقة بين الأنثى والوحش المرعب . النجوم منفى جديد ، والأتان الوحش سلطانة لم أرها بعد ، والأتان رفيقتي الحالية إطارٌ حمل إليّ الحلم ، وهي غافلة عمّا حولها . سأواجه مصاعب في المستقبل . لم أرَ السلطانة لحدّ الآن ، لكنّ عليّ أن أرسم صورة سوداء لما يحيطني . أنا صنعتُ النصر وعليّ المضي في ربط السلسلة ، وحظي السعد يجلب التعاسة لي . أشعر أنّي أعيش شخصيتين مزدوجتين ، ذيلاي فأل حسن للناس ، فأل سيء لي . كلّ من حولي لا يفهمونني ، ولا أفهمهم أحياناً ، والسرّ الخفيّ : ما هي علاقة الأتان بالسلطان وزواجه ؟ ولِمَ يحاول العرّاف أن يؤجّل علاجي إلى ما بعد حمل السلطانة . أفهم أو لا أفهم ، فتلك مسألة تعنيني أكثر من السلطان نفسه ، وهذه الغبيّة معي في القفص لاتختلف عن غيرها من البشر ، لا تفكّر إلا بالطعام والجنس . دنت منّي وقالت تقطع عليّ تأملاتي :

- ألا تحبني ؟

قلت بضجر : نعم أحبّك ولكنْ لا أرغب فيك .

ولفتّ رأسي عنها إلى الخلف كأنّي أجمع أفكاري المشتّتة لأتخيّل صورة جلالة السلطانة ، وأقرأ حظي معها من دون الاستعانة بالعراف !!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

- ٩ -

قبل اسبوعين تزوّج جلالة السلطان . . .

أصدر القصر الملكيّ بياناً مقتضباً جاء فيه أنّ الشعب يعلم جيداً مدى زهد السلطان وانصرافه إلى عالمه الصوفيّ الخاصّ ، وهو ـ أي جلالته ـ ما كان ليفكّر بالزواج لولا إلحاح شعبه ليثمر زواجه عن وليّ للعهد يرث العرش .

صباح يوم الزواج قضى جلالته ساعات معتكفاً داخل الضريح . كان وحده ، فالعرّاف حضر بعد منتصف الظهر ، ثمّ لبس السلطان حلّة جديدة وحلق شعره . كان يمتطي ظهري ، ويطوف بالشوارع ، والعرّاف ممسك باللجام . خرج الموكب من القصر برفقة الحرّاس إلى ساحة جلالة السلطان ، مروراً بشارع العرّاف ، ثمّ شارع الحمار ، وكانت الجماهير تصطفّ على الأرصفة وتحيي جلالته . بدا لي السلطان محبوباً من شعبه بعد الذي أحرزه مصادفة على خصمه التقليدي ، ولعلّ في الحضور من ينافق ويصفق رياء وفي أعماقه بغض للسلطة والسلطان .

رجعنا بعد المشوار إلى القصر . كان كلّ شيء عادياً وهادئاً ، فالسلطان زوج رسميّ ، والعرّاف هو الزوج الفعليّ ، وصوفيّة السلطان تدفعه إلى التجاوز عن حفلة صاخبة لا تتناسب وتقاليد تربّي

عليها ، وفي ذلك خدمة كبيرة ليغطّي على تسلل العرّاف إلى مخدعه .

المراسيم التي لفتت نظري دخول جلالة السلطانة بزيّها الأبيض تحيط بها امرأتان ، وموكب العرس الهادىء ، عند باب القصر أطلقت إحدى المرأتين زغرودة طويلة ، أجابتها الأخرى بزغرودة أطول ، وحين اقتربت السلطانة من جلالته ترجّل ، وخطا نحوها ، ليأخذ يدها برفق .

عند ذاك تبينتها جيداً ، فتاة متوسّطة الطول ، جميلة الملامح رشيقة القوام ، لم يحجب نقاب العرس الخفيف وجهها ، تمثّلت لي ملاكاً تحيطه هالة بيضاء . استبعدت المكر ، والخبث عن هاتين العينين الواسعتين ، والكبرياء عن الأنف المدبب اللامع . امرأة عاديّة لا تعرف التكبّر والخبث والغرور . شعرت بالعطف عليها ، ربّما ، لأني أراها ضحيّة مثلي .

كان الاستقبال سريعاً ، والمناسبة خالية من أيّ حفل ، لولا الزغرودتان لشبّهت زواج السلطان بمأتم لا يثير الحزن ولا الفرح . حالة من الجمود لا أستطيع لها تفسيراً ، غاية مافي الأمر أنّ العرّاف أدخلني القفص ، وانصرف إلى قبر السلطانة ينتظر هناك .

أمّا الملك فقد وضع يده بيد عروسه واتّجها نحو المخدع . . . ثمّ اطفئت الأنوار فخيّم ظلام على القصر ، ظلام يحمل أحداثاً لا يفهمها أحدٌ في القصر عدا جلالة السلطان نفسه .

قالت الأتان : جلالة السلطان دخل على جلالة السلطانة ، هل تفهم قولي أيّها البليد ؟!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أطلقت ضحكة عريضة طويلة ، فكسر صوتي جمود السكون .

ورأيت ، بعد ساعات ، وسط الظلام ، شبحاً يخرج من مرقد السلطانة المرحومة ، ويتسلّل إلى مخدع الملك ، والأتان على بعد منّي لا ترى إلا الحشائش والشعير أمامها ، وذكراً تحاول أن تثير رغبته . لقد رتّبوا كلّ شيء تقريباً ، ولا يعلم الخبر إلا الله والملك والعراف وأنا ، والسلطانة نفسها ، والمثل البشريّ يقول : كلّ سرّ إذا جاوز الاثنين شاع . أنا لا خطر مني سواء أذعت الخبر في مجتمع الحمير أم لا . هناك ثلاثة غيري ، وهذا ما يشغلني . لا أريد أن أسبق الأحداث ، على الرغم من أنّي أكتب سيرة ذاتيّة أحاول فيها أن أجد ذاتي قبل الآخرين .

في تلك الليلة ، بعد تسلل العراف إلى مخدع جلالة السلطانة ، خرج السلطان نفسه . سحب كرسيّاً ، وجلس قرب قفصي راح يتأمّل ذيليّ وجسدي كلّه ، كأنّه يرى نفسه وأمله وطموحه . كنت أشفق عليه أكثر ممّا أشفق على الأتان ونفسي الحبيسة داخل القفص الجميل . أثار وجوده الأتان فالتفتت إليّ وسألت بابتسامة بلهاء : أتظنّهما تشاجرا ليلة زفافهما ؟

تجاهلت سؤالها شأني كلّ مرّة ، فليس من عادتي أن أتحدّث عن أسرار البشر حتّى وإن أساؤوا إليّ ، أمّا الأتان فقد فسّرت صمتي على انّه تأييدٌ لكلامها .

استمرت الحال ، كما يقولون ، بهذا المنوال . السلطان يخرج بعد منتصف الليل ، يجلس قربي يتأمّل النجوم والفضاء ، ويتمعّن

فيّ ، والعرّاف يتسلل إلى مخدعه ساعة أو ساعتين ، ثم يعود إلى ضريح السلطانة يواصل سحره وتأمّله بالنجوم .

الشيء الوحيد الذي لا أعرف له سبباً ، هو أنّي لم أر جلالة السلطانة تتجوّل في ساحة القصر ، فجلالة السلطان نفسه يحرص على أن يبقيها داخل القصر دائماً ، ولا يحاول أن يصحبها في أيّة مناسبة . بدأ خوفي يتلاشى شيئاً فشيئاً ، ثمّ زال حين رأيتها ذات يوم . كانت بصحبة أحد الخدم ، يطوف بها في الحديقة الواسعة العريضة . شكلها اختلف تماماً عن يوم زفافها . كدت أراها امرأة أخرى . أصبحت شاحبة هزيلة يشع من عينيها حزن دفين ، وسرّ لا يعرفه إلا مجموعتنا نحن الثلاثة . قلت مع نفسي وأنا أتطلّع بوجهها : لا يمكن أن تكون جلالة السلطانة هي الغول الذي حاول أن يلتهمني ذات ليلةٍ ، فهي مشغولة عنّي بسرّ لا تدرك معناه مهما شحذت ذهنها لتكشف أبعاده .

حتّى حدث مالم أتوقعه . . .

نادى السلطان على الطبيب ، وأخطره أنّ السلطانة في حال غثيان وإعياء ، وأمره أن يتّخذ إجراءاته اللازمة لفحصها وتشخيص مرضها .

جلس السلطان والطبيب على كرسيين متقابلين بجانب قفصي . تردّد الطبيب ، ثمّ بدأ يتكلّم وصوته يتحشرج خجلاً :

- ما الذي يمكنني أن أقوله ياجلالة السلطان . لا أكتمك سرّاً انّي أخاف على نفسي وعليك أنت بالذات .

اصطنع السلطان الدهشة وقال : تكلّم ولك الأمان .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

قال الطبيب وعيناه تزوغان عن السلطان : زوجتك حامل .

قفز جلالته من على كرسيّه وحملق بوجه الطبيب غاضباً . التقط أنفاسه لحظات . قال : في المسألة خيانة .

لحظات صمت ، بدأ السلطان يحمل خلالها جبلاً من الهمّ . كنت أنصت لكلّ همس وأرى الممثّل يؤدي دوره بإتقان . كان أفضل منّي في التمثيل . المقارنة لا وجه لها إطلاقاً ، فعندما أقف على يديّ ورجليّ أشعر بالألم الجسدي ، فلا يحمر وجهي خجلاً ، ولا يصفر من افتعال الخوف ، ولا يدقّ قلبي دقّات عنيفة . السلطان تفوّق عليّ بتحكّمه في عواطفه الداخليّة ودقّات قلبه ، ودمه ، وعقيب الغضب لاح الحزن على وجهه ، وقال للطبيب :

- هل تؤدي لي خدمة ؟

نهض الطبيب من جلسته ، وانحنى لجلالة السلطان علامة الرضا والموافقة . ثمّ انقطع الحديث عنّي . كانا يتجوّلان بخطوات بطيئة ، ويتحدّثان همساً ، مبتعدين عن قفصي باتجاه ضريح جلالة السلطانة . التفتت إليّ صاحبتي وسألت وهي تقضم :

- جلالة السلطانة حامل !!

قلت متنرفزاً : ألم تسمعي ؟

توقّفت عن القضم لحظة ، وسألت :

- ماذا تخمّن أذكرٌ أم أنثى ؟

لم تكن لتكف عن الحديث الفارغ ، إنّها بالضبط كالطفل تظل تعيد أسئلة بسيطة لكنّها معقّدة . قالت :

- أتظنّ أنّهم سيقيمون احتفالاً رائعاً !!

تجاهلت سؤالها ، فانصرفت إلى الطعام هدفها المفضّل ، وكأنّها نسيت كل شيء عن السلطانة والحمل ، فالتقطت ذهني لحظات ، وكنت أفكر بالحديث الخاص بين الطبيب وجلالة السلطان .

- ١٠ -

بعد الظهر قدم العرّاف كعادته . أخبره السلطان أنّ جلالة السلطانة حامل وعليهما أن يرتّبا الأمور . الحكمة من وجهة نظر الاثنين تستدعي أن يظلّ السرّ بين السلطان والعرّاف . قلت أحدّث نفسي : السلطانة لا تستطيع التفوّه بالأمر .

قال السلطان : لقد أعددت كلّ شيء .

قال العرّاف لا تفكّر بالأمر .

كان العراف يتحدّث عن نجاح خطّته . ظننت إلى تلك اللحظة أنّ السلطانة على علم بما يجري ، فجأة أصابني ذهول شديد . بين فترة وأخرى تشطّ الحقيقة بي بعيداً فأراها أغرب من الخيال . لا أدّعي أنّ جلالة السلطانة تعلم ، فليس من المستبعد أنّ العراف والسلطان رتّبا طريقة ليغطيا على الأمر ، مع ذلك فقد خمّنت أنّ السلطانة تعاني من قلق ، أو تشكّ بأمر مجهول يوقظه داخلها

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

إحساس غامض .

كان العراف ، كما سمعت منه ، يدخل على السلطانة فيجدها نائمة بفعل مخدّر هيّاه من أعشاب بحريّة ، ثمّ . . . هذا كلّ ما في الأمر . أنا واقعي لا أرى حرجاً في الحديث عن الرجل الوحيد الذي وقف معي وقت الضيق . كان بإمكانه أن ينكر أنّي فأل حسن ، أو يغيّر الحقيقة كما فعل العراف السابق . وهو مكلّف بمهمّة من جلالة السلطان نفسه لا يستطيع التحرّر منها . لحدّ الآن أفعاله منطقيّة لا تستحق الانتقاص . أتصوّره كالعسكري يستلم الأوامر ويطبّقها حرفياً ، ربّما تكون الفرصة مناسبة للعسكري أن يهرب لكنْ ما الذي يستطيع أن يفعله العرّاف المسكين الذي أكرهه وأحبّه في وقت واحد ، وهو رجل عظيم يجعلك تحبّه وتكرهه ، ومن خلال تجربتي مع البشر عرفت أنّ العظيم هو من يملك القدرة على زرع التناقض في قلوب النّاس ، يجعلهم يحبّونه ويكرهونه ، يحاولون الانتقام منه ، فيتذكرون حبّهم له ، ويحبّونه ، فيتذكرون نفورهم منه . موقف صعب لا يمكن لأيّ إنسان عاديّ أن يصل إليه .

خلاصة القول : نهض العراف وهو يؤكد : بالفعل يا جلالة السلطان اليوم نتخلّص من الطبيب .

خطا نحو قفصي وتوجّه إلى الأتان . أخرجها إلى موضعها ، وقدّم لها طعاماً شهيّاً . كانت تأكل بنهم حتّى أتت على الطعام كلّه ، فعاد بها العراف إلى مكانها . انتظر برهة ، وإذا بالأتان تتغيّر سحنتها . . . بدأ جسمها يرتجف . . . رفست الأرض بقوائمها . . . انقلبت على ظهرها وبطنها . . . رفست الهواء ، كأنّها تحاول أن

تتخلّص من قبضتين قويتين تضغطان على رقبتها . انتشر الزبد على مشفريها ، وشيئاً فشيئاً بدأ الضعف يدبّ في حركتها . . . ثمّ همدت حركتها ، وتكوّمت جثّة لا حراك فيها .

في هذه الأثناء عشت لحظات ندم لا خوف . كانت تودّ لو أسمعها كلمة حبّ واحدة لكنّ إصراري على المبدأ جعلني أظلم مخلوقاً عاملني بلطفٍ ، ذات يوم . كاد الندم يأكلني . الندم أحدّ من الحزن أحياناً . أسأت الاختيار يوماً ما ، وكان بإمكاني أنْ أختار أخفهما وقعاً على نفسي !!

في اليوم نفسه تمّت التصفية على أكمل وجه . توجّه العرّاف إلى مرقد السلطانة ، وانتظر إلى أنْ حلّ الظلام ، فخرج متسلّلاً . رأيت عن بعد شبحاً آخر يتبعه . . . حاولت أن انبّه العرّاف ، فنهقت بصوت عال لكنّه لم يعرني اهتماماً ، ولم يع القدر خلفه ، وبخفّة وحذر ، رفع الطبيب مديته وطعن العرّاف في ظهره ، واستغلّ فرصة للهرب باتجاه قفصي ، كما اتفق هو وصاحب الجلالة على ما يبدو ، وهنا أمام القفص التقيا . استقبله جلالة السلطان بعناق حار . . . ثمّ كدت أفقد الثقة ثانية بعيني . جلالته ثانية يستل خنجره خلسة ويطعن الطبيب في ظهره . . . كم تمنّيت أنّي أحلم . . أرفض ما أراه ، غير أنّي كنت عاجزاً عن فعل أيّ شيء تقريباً .

المفاجأة شلّت لساني ، والحوادث تمرّ غريبة أمام عينيّ كرجل عاش قبل ألف سنة ، أخرجوه اليوم من قبره فرأى أشياء غريبة : بعضها يطير ، وبعضها تحت الماء . سيصاب بالجنون إن لم يتخيّل نفسه في حلم ، وربما يظنّ القيامة قامت ، وكلّ ما على الأرض

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

والسماء يداهمه حتى تخور قواه .

بعد لحظات فكّرت ملياً . قلت : لستُ إنساناً كي أصاب بالجنون ، سوى أنّ غيرتي على البشر أكثر من غيرتهم على أنفسهم ، فمالي وللدخول في مشاكلهم الخاصّة .

النتيجة أنّ جلالة السلطان سحب جثّة الطبيب ووضعها داخل القفص ، ثمّ حثّ خطاه إلى حيث جثّة العرّاف ، حملها على كتفه ، وعاد بها إلى القفص أيضاً . لم أتبيّن ملامحه في الظلام . كان على ما يبدو ينفض عن كاهله همّاً ثقيلاً عاشه سنوات طويلة ، فألقى على الجثث الثلاث نظرة قصيرة ، وعاد إلى مخدعه ، كأنّ شيئاً لم يكن .

كنت أفكّر بمصيري الساعات التي تلت . أنا في القفص ومعي جثث ثلاث : الأتان عروسي ، والعراف ، والطبيب ، واحدة من فصيلتي والأخريان من جنسين مختلفين ، حين اتّهم بقتل حمار أو أتان ذلك أهون ، فنحن مجتمع الحمير نغضّ النظر عن بعض المشاكل المستعصية عند بني آدم كالثأر والأرض والكرامة ، وما أشبه ذلك من كلام لا معنى له عندنا ، لكنّ اتهامي بقتل رجلين فيه مسؤوليّة كبيرة . أنا أذهب في ستّين داهية ، ليس هذا فحسب ، بل ستثير التهمة حقد البشر على الحمير ، فيبدؤون بقتل أيّ حمار كان ، أو يتحمّس بعضهم فيحلل دم جميع الحمير .

الأفكار تضطرب برأسي ، فأكتشف في النهاية انّي كنت مخطئاً ولستُ غبياً . دائماً أضع احتمالات قريبة ، تبدو لي بعيدة ، فأنا أحد رموز القصر العظيم ، واتهامي بجريمة بشعة راح ضحيّتها ثلاثة مخلوقات ، تمشي على ثمانية أطراف ، اتّهام للنصر الكبير ذاته . ألم

يعلن جلالة السلطان نفسه عنّي ؟ ألم يدعُ البرلمان إلى إطلاق اسمي على أحد الشوارع ؟ ثمّ اني لا أستطيع القتل إلا بالركل فقط ، إذن أنا بريء حتى تثبت إدانتي .

بقيت طول الليل يقظاً . حيّ مع ثلاث جثث . اقتربت من العرّاف وتمعنت بوجهه . تذكرت قوله السابق : انّي أرى هالة سوداء تحيطني . كان الرجل صادقاً في هواجسه ، وكان يعرف مصيره ، فهل ارتبط وجودنا نحن الاثنين ؟ أمّا الطبيب فقد شعرت بنفور نحوه ، ومع تجدد النفور عاودني القلق من جديد . أحسست بغمامة سوداء كثيفة تعصر صدري ، كأنني نسيت شيئاً ما بعد النصر الكبير ، شيئاً يلصق به تماماً . انتبهت إلى ذيلي الثاني الذي جرّ عليّ المصائب ، ووازنت بين كرهي للطبيب ، وهذا الذيل اللعين . مات الطبيب والذيل اللعين ينبض بالحياة ، وأنا لا أستطيع أن أنتزع هذه الزائدة البلاء . . .

رجعت ذاكرتي إلى المحقق ، والاعتراف . . . قبل فترة كنت إنساناً يلبس جسد حمار ، بتعبير آخر جاسوس ، ثمّ أصبحت علامة نصر كبيرة ، والآن مجرم . . . وغداً أقف أمام حاكم يدّعي الفلسفة والعلم ومعرفة اللغات كالنبيّ سليمان ، ويسألني : مجرم أم بريء . . . انتفضت كنائم يهرب من كابوس ثقيل ، صحت بأعلى صوتي : لستُ مجرماً ولن أدلّ على المجرم نفسه ، فسمعت صدى نهقتي يرددها الفضاء ، فتتلاشى إلى أعماق بعيدة ، ولا أحد ينتبه لها .

في الصباح صدر مرسوم أراحني من شكوكي : أعلن القصر أنّه في الليلة الماضية ، قام الطبيب الخادم بعمل دنيء تقاضى عليه

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

أجراً من خارج البلاد ، والنفس البشريّة كما يعلم شعبنا المجرّب الحكيم مجبولة على الطمع ، فكان أن دسّ السمّ إلى الفأل الحسن الحمار ، ولحسن الحظّ أنّ الفأل الحسن لم يكن ذا شهيّة تلك الليلة ، في حين التهمت الأتان عروسه الطعام المسموم ، وإذ علم الطبيب أنّ العراف اكتشف غدره طعنه طعنة قاتلة ، فاستلّ العراف الشهيد ، وهو جريح قبل أن يلفظ أنفاسه خنجره وطعن الطبيب الخائن . . .

ثمّ أبّن المرسوم إخلاص العرّاف بكلمات تثير العواطف ، وأصدر جلالة السلطان نفسه مرسوماً بتعيين طبيب وعرّاف جديدين .

- ١١ -

لم تثرني المظاهرات التي خرجت حال إذاعة الخبر بين الناس ، ولم أهتمّ قطّ لتصريحات السلطان نفسه ، وهو يحيّي الجمهور من شرفة قصره ، ويعد بأن البلاد بخير ، وأيّة مؤامرة مصيرها الاخفاق ، ما دام الفأل الحسن موجوداً في البلاد .

لا يمكن للمسيئين أن يرجعونا إلى الوراء .

لا يمكن للأعداء أن يوقفوا التاريخ .

مادام الفأل الحسن موجوداً ، فكلّ شيء بخير .

بهذه الصورة حرّض السلطان الناس على المتآمر الدكتور ، فطالبوا بالمزيد من الرؤوس ، وكشف الحجب عن المتآمرين في

المستقبل ، فقد جرت العادة أنْ تُراعى الظروف الأمنية فلا تكشف السلطة كلّ ما في جعبتها الآن .

كما انّي أحسست ببرودة تجاه العرّاف الجديد . ليست هناك أيّة عاطفة تشدّني نحوه . أراه دائماً يحاول أن يقتفي أثر سلفه في رؤيا الأشياء وتحليلها ، أمّا الطبيب فلا علاقة لي به إطلاقاً ، في حين استمرّ طبيبي الخاصّ يزورني كلّ أسبوع ليتأكّد من صحّتي .

شيء واحد كان يقلقني ويحرمني من النوم ، هو النيّة السيئة ، فأنا أمثّل شذوذاً لكوني من جنس آخر لا يعرف الحقد والانتقام . من يدريني لعلّه يأتي يوم يُطاح فيه برأسي ، وأنتقل كالعادة من «يعيش» إلى «يسقط» ففي عالم البشر ، تتغيّر المقاييس ، وتنقلب المفهومات ، تغيّر الطقس ، وتقلّب البحر .

عندئذ بدأت أفكّر بالموضوع جدّياً . . . أنا هنا في القفص محكوم بكلمة من العرّاف ، ماذا يحدث لو فاجأ السلطان يوماً ما وأعلن أنّي تغيّرت من فأل حسن إلى سيء ؟ هكذا خيّل إليّ ! ربّما تكون حياتي ثمناً لوصول مجموعة أخرى ، فيذاع فيّ بيان مؤثّر ، وأصبح في عداد الشهداء ، أليس هذا محتملاً ؟

فكرت طويلاً حتّى اهتديت إلى وسيلة أتحرر بها من سجني ، فأنا لا يمكنني أن أنفّذ ما يدور برأسي إلا بالتحرر أوّلاً من السجن الكبير ، القفص !!

في الصباح قدّم إليّ الخادم طعاماً شهيّاً شأنه كلّ يوم ، فأكلت قليلاً ، وأعرضت عن معظمه . كنت أشعر بجوع حقيقيّ لكنني تحاملت . تذكرت أنّ البشر يسمّونني «أبا صابر» فعليّ أن أصبر على

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

الجوع من صبري على التعب .

عندما لاحظ الخادم إعراضي عن الطعام مرّة أخرى ، أوصل الخبر إلى جلالة السلطان الذي قدم للتحقيق ، ومتابعة الأمر عن قرب .

والحقيقة أنّي لم أره منذ ثلاثة أيام ، أي بعد أن ألقى خطابه من شرفة القصر ، فقد اعتكف في قصره طول تلك الفترة ، كأنّه نسيني ونسي زوجته الأولى . توقّعت أن أقرأ شيئاً من تأنيب الضمير في عينيه بل على النقيض . كان يبدو فرحاً ، وكأنّه حقّق شيئاً للسلطنة ، والذي يشغله أنّه سيواجه الناس بعد شهور ويذيع فيهم ولادة وليّ العهد . تلك المسألة شغلته عن كلّ شيء يتعلّق بالماضي البعيد ، كزوجته السابقة ، والقريب القريب جدّاً كمصرع رفيقيه : العرّاف والطبيب ، ولا أحد يدري انّ دم صاحب السمو تغيّر ولم يعد هو هو ، أما الناس فيصفقون إلى أيّ شيء يجهلونه تماماً .

إذن لا مجال لي إلا الصبر على الجوع لكي أهرب من زيف يحيط بي .

سأل السلطان عن سرّ تغيّري ، فأجاب العرّاف بعد أن تطلع في كتاب قديم داكن اللون : يا جلالة السلطان الأمر غامض في النجوم . الأفلاك تقول أنّ الحال سببها الوحدة على الأرض .

اقشعرّ جسدي لما سمعته ، فلستُ على استعداد لأن أستقبل في القفص ثانية ، أتاناً ، وأضطر إلى أن أكبت نفسي مرغماً على اثنين : الجوع من جهة والإغراء من ناحية اخرى .

ومع ذلك فقد نفّذتُ خطّتي . . . في اليوم نفسه ضرب العرّاف أرقامه ، طرح ، وجمع ، وقسّم وتطلّع نحو السماء ، فتح كتاباً ، اختار لي وفقاً لسطوره أتاناً جميلة ، لو رآها أيّ حمار لحسدني عليها . . . لكنني كنت أتحمّل ، قررت أن أستمرّ بإضرابي عن الطعام ، وأتجاهل الأتان تماماً ، كأنّ حضورها ، وغيابها سواء ، أو كأنني أنظر إلى بقرة أو امرأة ، فلا تثير شبقي .

توقّعت أن تبادر هي إلى دعوتي غير أنّها انصرفت في الساعات الاولى إلى الطعام ، فأحسست بأمعائي تكاد تتمزّق من الجوع ، عندما شبعت اقتربت منّي ، ووضعت مشغريها قريباً من أذني .

قالت : أنا عروسك ألا ترغب ؟

تجاهلت سؤالها تماماً ، وتظاهرت بالنوم ، فانصرفت عنّي إلى إحدى زوايا القفص ، وغرقت بالنوم بعد وجبة طعام قويّة . قلت أحدّث نفسي : أنا حمار ، ولا أحد يكشف أمري ، ووجود الأتان المسكينة يعطيني حرّيّة الأكل أكثر ممّا لو كنت بمفردي ، إذ أنّ الخدم لا يميّزون من الذي أكل كلّ هذا . . . حاولت أن أكون صادقاً مع نفسي إلى درجة تامّة ، فيكون إضرابي عن الطعام صحيحاً ، وليس مجرّد واجهة اعلاميّة ، فلم أقدر . التفتّ كلصّ مرّة ومرّتين حتّى إذا تأكدت من نوم الأتان وانشغال الخدم ، ووثقت من قوّة الظلال حول قفصي قضمت قضمتين أو ثلاثاً تغلبت بها على جوعي ، وكنت بعد لحظات أنام نوماً مريحاً خالياً من كلّ أحلام تعيسة .

كانت أحلامي هذه المرّة بيضاء ، جميلة ، حلمتُ أنّي أطير بجناحين أبيضين وسط الأفلاك والنجوم ، فتتحوّل المدارات إلى

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

عرائس جميلة تنثر عليّ الورود . التفتّ إلى ذيلي الثاني فلم أجده . حاولت أن أكتشف سرّ اختفائه فعجزت . كان الحلم لذيذاً وجميلاً ، وددت أن يطول ، ويطول . . . ثمّ استفقت على هزّة عنيفة داخل القفص . كنت أسمع نهيق صاحبتي ، والطبيب عند رأسي ومعه العرّاف والسلطان ، كان الوقت متأخّراً . يبدو أنّي نمتُ إلى الضحى ، فازداد خوف الخادم الذي أوصل الخبر إلى السلطان . سمعته يؤكّد حين فتحت عينيّ : يا جلالة السلطان لم يأكل أيّ شيء منذ يومين ، كلّ الطعام أكلته الأتان .

تفرّس الطبيب بوجهي ، وعاين جسدي معاينة دقيقة .

أكّد لجلالته أنّه لا شيء خطر ، ثمّ حصر ذهنه ، وتحدّث وهو يستطلع وجه العرّاف كأنّه يستعين به :

يا جلالة السلطان مرض الفأل الحسن نفسي !!

هزّ العراف رأسه ، وسأل الملك مستغرباً :

- أو أصابته عين ؟!!

أجاب العرّاف بالايجاب ، أمّا الطبيب ، فواصل حديثه : يا جلالة السلطان ، إنّه يعيش في القفص فيضيق نَفَسُه والحمير تحبّ التجوّل . أعتقد أنّ ذلك هو العلاج الناجع له .

كان العرّاف يؤكد كلام الطبيب ، وكان السلطان يتابع أخبارهما باهتمام ، في تلك اللحظة اقتنع تماماً وأصدر أمره بأنّ الفأل الحسن ، سيتجوّل في الشوارع من باب الاستجمام بدءاً من يوم غد ، أيْ أنّ الفأل الحسن نفسه سينزل إلى الشارع ، ويجلب السعد

إلى الجميع .

حين انصرف الثلاثة تذكرت أنّي فقدتُ ذيلي الثاني ، وتلك حسب اعتقادي علامة خير . انتبهت إلى أنّي أعيش واقعاً لا حلماً . التفتّ إلى الخلف ، فوجدت ذيلي الثاني ما يزال في مكانه كأنّه يتحدّى أمنيتي ، فرفعت صوتي عالياً ، ونسيت أنّي حصلتُ على رخصة تجعلني أتخلّص طول اليوم من سجن القفص ، لكنّ التصريح نفسه لا يحررني من ذيلي الثاني الذي جرّني إلى متاعب أنا في غنى عنها .

- ١٢ -

وكانت البركة تنزل إلى الشارع

حدث غريب لم يعتده الناس من قبل . كانوا يقدمون لي كلّ شيء ، يحاولون اسعادي بأيّة طريقة كانت . لكنني كنت مجبولاً على حبّ الانتقام هذه المرّة ، وهو وسيلتي الوحيدة لأتحرر من سجني ، وأقتصّ من جلالة السلطان مباشرة .

كنت أكره جلالته من أعماقي ، فقد قتل أمامي ثلاثة ، أحدهما صديق ، وواحدة من أبناء جنسي . لو انتقمت للأتان لإتهمني الآخرون بالتحيّز ، والتحييز العنصري ، وذلك يخالف الموضوعيّة التي عرفت بها .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

كانت أعمالي نابعة من محاولتي للتحرر بالدرجة الاولى ، ثمّ الانتقام للعرّاف الضحيّة ، وكنت أختار طريقة غريبة كادت تقضي عليّ أنا مخترعها !!

كنت أمتنع عن أكل أيّ طعام يقدّم لي . أختار بنفسي ما أشاء . أدخل المحلات فأنتقي على هواي . آكل قسماً وأركل الأقسام الأخرى . أو أمشي في الشارع ، أعضّ المارة ، وأركلهم بعض المرّات .

حاولت أن أثير الناس على السلطان ، وقد نجحت طريقتي بالفعل . في البدء فسّروا تصرفاتي على أنّها غضب البركة عليهم . إنّ الفأل الحسن غاضب . لقد كرهني الناس بصورة غير مباشرة ، مقتني الجميع من خلال السلطان نفسه ، فهو يدفع حماره للعبث بأموال الشعب . همسات الناس تحوّلت إلى لعنات جريئة . الحقيقة خامرني شعور بالزهو ، فبي استطاع السلطان أن يغلب أعداءه ، وسوف أسقطه أنا .

لكنّي تساءلت . . . العرّاف المرحوم صديقي لا يكذب ، وأنا فأل حسن ، فكيف أحمل المتناقضات ؟ حرّضت الناس على السلطان ، وسوف يخرجون متظاهرين مستنكرين ، لأفرض أنّهم أسقطوا جلالته ، فمن يضمن لي النتيجة ، ربّما يجرّون جثتي معه ، إلا إذا حدثت معجزة ما ، معجزة تحمل التناقض ، فيقوم الناس بإسقاط جلالته ، ويحتفظون بي باعتباري رمزاً للنصر ، وهذا استنتاج بعيد الاحتمال .

يجب ألا أكون متفائلاً إلى حدّ بعيد ، ولا متشائماً إلى درجة

اليأس .

الناس الآن يكرهون السلطان بفضلي ، والأنباء تشير إلى تغيير محتمل ، وهناك عدّة افتراضات تتلاعب بأفكاري ، وأنا أتجول في الشوارع ، وأدخل الحوانيت ، آكل ما أشاء ، وأركل ما أنفر منه ، وأعضّ من دون سبب . كثيراً ما أتوقف وأرسم جدول مقارنة . السلطان بطل نصر سابق . الإطاحة به تعني الإطاحة بالماضي ، وأنا الفأل الحسن ليوم غد ، فأيّ منّا يقضي على صاحبه . الناس حائرون أيضاً ، لا يدرون أيقضون على السلطان أم علي ، أيقتلون ماضيهم أم مستقبلهم .

كنت أعود متعباً إلى القفص بعد نهار طويل متعب ، فأجد صاحبتي مشغولة بالأكل ، وفي إحدى الليالي سألت نفسي لِمَ لا أقترب منها ، ما دمت فألاً حسناً فعليّ أن أجعل السلسلة مستمرة ، ومع ذلك فقد محوت افتراضاً جوهره أنّ أيّ جحشٍ منّي لن يكون بذيلين ، أمّا أنا فلستُ أكثر من أعجوبة لا تتكرّر إلا مرّة واحدة فقط .

في الليلة نفسها تغيّرت معاملتي للأتان . ابتسمت بوجهها مراراً ، وحدّثتها بلطف ، وعندما سألتها عن سبب امتناعها من الخروج ابتسمت وأجابتني أنّها لم تجد مكاناً للطعام والراحة أفضل من القفص ، ففكرت في مستقبل جديد أصنعه ، لِمَ لا تحمل هذه الأتان منّي جحشاً ، يشبهني في الذكاء ، ويحمل جمالها ، فالمستقبل لا بدّ أن يكون جميلاً مليئاً بالاختراعات . ليس هو في الجنس فقط ، لذلك ، بناءً على التصوّر المذكور ، أخذتها بين قائمتيّ ، ثمّ التقت مشافرنا ،

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وغبنا مع حلم لذيذ .

رأيتها بعد ذلك تتمرّغ على أرض القفص ، وتلتهم الطعام بشهيّة مضاعفة . كنت أراقبها . أتابع أنفاسها الهادئة ، وأقرأ في بطنها مستقبلاً ساهمت بصنعه ، قد أراه ، ولعلّي أحرم منه .

الليلة نفسها ، زارني جلالة السلطان والبيطار ، والعرّاف . جلس الثلاثة قرب قفصي . كان الاثنان يتابعان أخبار الغيب . تطلّع العرّاف بالنجوم ، واستقرأ كتبه . قطع علينا الصمت وقال :

- إنّي أرى علامة استفهام تحيط الحمار .

ابتسم السلطان وقال : وصلت إليّ معلومات عن قبوله الأتان .

لم أكن أهتمّ قطّ فيما إذا راقبني الانسان والحيوان ، وأنا في وضع مع الجنس اللطيف . كلّ الأصناف الحيوانية متساوية بنظري ، الخجل نوع من النفاق ، فلم أخجل من شيء يعرفه الجميع . وأعجب أنّ أمراً كهذا يُنقل على عجالة إلى جلالته ، ولا أحد يجرؤ على نقل تصرّف خطير كعبثي بالأسواق كلّ يوم .

صاحبتي الأتان نفسها لا تعلم لِمَ فعلت ذلك معها . إنّها تستسلم بدافع اللّذّة لا أكثر ، أمّا أنا فبدافع الحفاظ على المستقبل الذي حصره العرّاف بعلامة استفهام .

قال البيطار معقباً : ألم أقل أنّ مرضه نفسي . كان يجب أن نتركه يخرج من القفص منذ زمن .

كنت أعيش قلقاً في القصر ، وحزيناً خارجه ، فإذا عدت

مساءً قضيت دقائق مع الأتان ، وبقيت أفكّر طول الليل بعلامة الاستفهام التي تنبّأ حولها العرّاف .

هكذا كنت أعيش في تلك الفترة ، في الشارع أمارس أعمالاً لا أقتنع بها ، وعلى الرغم من أن البلد ضاق ذرعاً بأعمالي ، لكنْ لا أحد يجرؤ على نقل الصورة الحقيقية لجلالته . كان المخبرون والناس يرفعون إليه تقاريرهم بصورة مقلوبة تماماً . . . الحمار هادىء . . . الحمار وديع . . . بعض الأقوال تبالغ فيّ إلى درجة كبيرة . . .

وأنا أزداد عتواً وشغباً . . .

والناس من حولي يزدادون هياجاً ، ولا يجرؤون على المواجهة . . .

لم أكن غبيّاً بالمرّة ، وهذا هو الخطأ الشائع الذي وقع فيه البشر . استطعت أن أحرّك الناس ، أي أن أقوم بثورة حسب مصطلح بني الانسان . الناس الآن مهتاجون . لقد نجحت إلى هذا الحدّ ، لكني لا أعرف كيف أسير بعد هذه المرحلة . حالي يشبه بالضبط قادة العالم الثالث ، حين يقومون بثورات غير أنّهم لا يستطيعون الحفاظ عليها طويلاً .

لهذا السبب كنت قلقاً . كنت أحدّث نفسي ، وأنتظر لحظة تخلّصني من ذيلي ، فقد انحصرنا بدائرة مفرغة . الناس لا يدرون ماذا يفعلون ، والسلطان آخر من يعلم ، وأنا يثقلني ذيلي .

هكذا خيّل إليّ . . حتّى حلّ يوم لم أكن أتوقّعه ، كنت دخلت حانوتاً للخضروات ، عبثت ببعضها ، وركلت بعض الأقفاص ، ثمّ

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

خرجت إلى الرصيف . رأيت شاباً لا علاقة له بالناس ، ظننته مهووساً يحدّث نفسه ، عندئذ أحسست بشيء غير عاديّ يلاحقني . تأكدت أنّه ليس ظلّي ، فالشمس كانت عموديّة تستوي تحتها الأشياء وظلالها . التفتّ خلفي فرأيت مجموعة من الشباب تتبعني . توجست خيفة فانحرفت إلى زقاق ضيق خالٍ ، فانحرف الشباب خلفي . تبيّنتهم تماماً . خمسة أشخاص أكبرهم في العشرين ، قويّ البنية أسمر الملامح عنيد كالبغل تماماً . توقّفت أستطلع الأمر ، وقررت أن أردّ بعنف . اقترب اثنان من وجهي . مسح أحدهما على جبهتي ، فأحسست بالأمان .

وفجأة . . . انقض الاثنان الآخران على قائمتي الخلفيتين ، ورفعاهما إلى الأعلى . اختلّ توازني ، فسقطت على يديّ ، وكان الشابان يشدّاني من الأمام بقوّة .

أحسست أنّي مكبّل ، ولا مجال لأن أقاوم ، التفت إلى الخلف ، فرأيت كبيرهم يستلّ خنجراً كان يخفيه في جيب معطفه الداخلي . خلت النهاية قريبة ، واستسلمت للموت . تيقنت هذه اللحظة أنّي غبيّ ، وأنّ للبشر الحقّ في أن يتهمونني بالغباء ، فقد قدت ثورة أطاحت بي وأنا لا أعلم .

لكنّ كبيرهم أعاد الثقة إليّ بنفسي . كان يستهدف ذيلي الأخر فقط . مسك الذيل الثاني ، وقطعه من الجذر بلمحة خاطفة . كنت أشعر بالألم سوى أنّ الاحساس بالحريّة جعلني أتجاهل آلامي . . . أنا الآن بذيل واحد كأيّ حمار عاديّ . لم أفكّر وقتها بالسلطان ،

والقفص والأتان التي ستحمل جحشاً منّي يعدّ امتداداً للفال الحسن ، ولا بالناس الذين تركتهم منتصف الطريق وتخليت عنهم .

كنت أركض على الرغم من ألمي كأيّ حيوان عاديّ ، وأنا أتحسس الأرض ، وأشمّ الآثار لأصل إلى أقرب مزرعة أو غابة أعيش فيها بقيّة عمري بعيداً عن مشاكسات بني آدم .

كوبنهاغن ١٩٨٨/١٠/٢٧

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

فهمي الشيخ عسكر

لِلحمار ذَيل وَاحِد

لَه ذيلَة

دار الحضارة الجديدة

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner